مَنازِل العبّاد مِن العِبادة

للحكيم الترمذي محمد بن علي المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

دراسة وتحقيق
الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

المكتب الثقافي للنشر والتوزيع
الأزهر - القاهرة

الطبعة الأولى بمصر ١٩٨٨



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة وهداية للعالمين .

أما بعد

فإن الحكيم الترمذى يعتبر من أعظم الشخصيات الإسلامية التى يعتز بها التاريخ الإسلامى . فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى . كانت بداية لتفتح ينابيع المعرفة التى ظلت مؤثرة فى حضارة العالم قرونا طويلة ، ولا زالت البحوث والدرسات تكشف عن هذه الينابيع المؤثرة .

لقد ظهر الحكيم الترمذى فى فترة حرجة كانت أحوج ما يكون إلى الحكيم حيث خط المسار ، ووضع للنفس المنهاج ، حتى تستجيب لنوازاعها الخبرة . وقد ولد الحكيم : إبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر الترمذى من عائلة تنتمى إلى العرب فى العشرة الأولى من القرن الثالث الهجرى ، القرن التاسع الميلادى .

وكان والد الحكيم من رواة الحديث الذين رحلوا فى سبيله ، واشتغلوا بروايته . فقد ترجم له الخطيب البغدادى ، وذكر أنه نزل بغداد وحدث بها . وقد روى الحكيم كثيرا من الأحاديث فى كتبه المتعددة عن والده .

وكانت أم الحكيم كذلك من أهل الحديث فقد روى عنها الحكيم فى كتابه « الرد على المعطلة » . وكذلك كان جده لأمه من أهل الحديث . لقد فتح الحكيم الترمذى عينيه على حلقات العلم وروايات الحديث ، والدرس منذ بدأ يعقل . لأن أباه كان أحد علماء الفقه بجانب رواية الحديث . وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم ، وتحصيل المعارف ، ويحمله على ذلك حملا فى وقت مبكر ، حتى امتلأ وقته منذ الصبا الباكر بالاقبال على مذاكرة العلوم وتحصليها ، شأن النابهين .

وحسبك بيت علم ينشأ فيه الحكيم فتلتقط أسماعه أول ما تلتقط آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ . يهتف بها أبوه كما تهتف بها أمة . ولهذا كان لكتاب الله عز وجل ، وسنة النبى ﷺ ، السلطان ، على اتجاهات الحكيم ، وسلوكه وتفكيره ومؤلفاته .

ولاشك أن إتقان الحكيم الترمذى للقرآن الكريم حفظا وفهما ، وتبحره فى علم الحديث . « كان ذا أثر بعيد فى اتجاهاته الفكرية ، وأرائه التى بسطها فى كتبه المختلفة ، مما يشعر بثقافته الواسعة ، ومعرفته العميقة بالقرآن الكريم وأسراره ، والسنة النبوية ومناهجها ، وانعكس ذلك انعكاساً واضحا على كل ما كتبه ، بحيث لا تجد صفحة واحدة من كتبه إلا ويستشهد على ما يورده فيها من أراء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية التى كان محصوله منها وفيراً »[1] .

وكتاب '' منازل العباد من العبادة '' أو منازل القاصدين إلى الله ، من كتب الحكيم الترمذى ، التى استعرض فيها منازل العباد فى طريق وصولهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذا الكتاب كان استجابة من الحكيم لرغبة تقدم بها إليه ، من يريد معرفة وصف المنازل .. ويقول الحكيم فى مقدمة الكتاب « فانكم سألتمونى عن وصف منازل العباد من هذا الدين ، وانى أذكر لكم عن كل منزلة منها من طريق الكتاب المنزل ، والخبر المأثور ، ما يكون شاهدا على وصفى » .

ولعل القارئ يدرك فى سهولة ويسر أن منهج الحكيم الترمذى فى « منازل العباد من العبادة » أو منازل القاصدين إلى الله كان العلامة المضيئة فى طريق الهروى صاحب كتاب « منازل السائرين » ولابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين » . فكتاب منازل العباد من العبادة للحكيم الترمذى . كان الينبوع الذى أفاض ، وأنار الطريق ...

ومخطوطات « كتاب المنازل » توضح لنا : أن الحكيم الترمذى وضع هذا الكتاب على بابين رئيسين : باب يعرض فيه المنازل ووصف أهلها . وباب يذكر فيه الدليل من الكتاب والسنة على كل منزلة جاءت فى الباب الأول .. وقد رأيت أن أضم كل منزلة فى الباب الثانى إلى ما جاء لها فى الباب الأول ، حتى لا أفصل بين المنازل ووصف المستحقين لها وأدلتها التى جاءت لها . ليتعرف القارىء على المنزلة والمستحقين لها ، وما جاء عليها من أدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية والأثار .

وكتاب « منازل العباد من العبادة » جاء ضمن مخطوات مكتبة أسعد أفندى بتركيا تحت رقم ١٤٧٩ وإسماعيل صائب بتركيا تحت رقم ١٥٧١ ومكتبة باريس ضمن مجموع تحت رقم ٥٠١٨ .

(١) الدكتور الجيوشى فى مقدمة معرفة الأسرار .

وقد جاء المخطوط فى نسخة المكتبة الأهلية بباريس ، وأسعد أفندى بتركيا تحت عنوان « منازل العباد من العبادة » فى حين وجدنا أن عنوان المخطوطة بمكتبة اسماعيل صائب تحت عنوان : « منازل القاصدين إلى الله » .

ويبدو أن عنوان « منازل العباد من العبادة » هو العنوان الذى يتفق مع قول الحكيم الترمذى « فإنكم سألتمونى عن وصف منازل العباد من هذا الدين » وان كان « منازل القاصدين إلى الله » لا يبعد عن « منازل العباد من العبادة » فى المعنى ، وقد حاولت جاهدا أن أبرز النص واضحاً ، بعد أن وضعت دراسة لكل منزلة من المنازل التى ذكرها الحكيم الترمذى .

وكتاب « منازل العباد من العبادة » من الكتب التى تشتد إليها الحاجة فى كل وقت ، وأمتنا الإسلامية فى أمس الحاجة إلى معرفة هذه الكنوز التى تفيض وتشع .

أسال الله أن ينفع به

/ / ١٤٠٩

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح
كلية أصول الدين ــ جامعة الأزهر

دراســـة

لقد بلغ من اهتمام الحكيم الترمذى بالسالكين أن جعل لمقاماتهم أو منازلهم كتاباً أسماء « منازل العباد من العبادة أو منازل القاصدين إلى الله » وفى هذا الكتاب يستعرض الحكيم الترمذى منازل العباد فى طريق وصولها إلى الله . ويقدم وصفا لأهل كل منزلة من هذه المنازل ، مستشهداً على ما يقول من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومن عادة الحكيم أن يدلف إلى ما يريد بمقدمة قصيرة يذكر فيها الهدف من الكتاب والداعى إليه ، وأهم محتوياته . ولقد جاء قوله فى مقدمه كتاب « المنازل » : « فإنكم سألتمونى عن وصف منازل العباد من هذا الدين وأن أذكر لكم على كل منزلة منها من طريق الكتاب المنزلة ما يكون شاهدا على وصفى[1] » .. ويفهم من العبارة المذكورة التى جاءت فى مقدمة المنازل أن هناك سؤالا كان موجهاً إلى الحكيم الترمذى . وقد يكون هذا السؤال موجهاً إليه من جماعة قد يكونون تلاميذاً . وقد يكونون أصدقاء يتباحثون معه . وقد يكونون مناظرين يسألونه الدليل على ما يدعو إليه . وقد يكون الأمر على غير هذا كله ، وأنه ليس هناك سائل مباشر ، وإنما شعر أن عرض مثل هذه الأراء على الناس يحتاج إلى بسط وسند من كتاب الله وسنة ورسوله . وربما لم يكن هناك داع أصلاً من هذه الدواعى . وأنما هى سمة المؤلفين وسنتهم فى ذلك العصر ، وجدوا فيها وسيلة لعرض أفكارهم على الناس ، ودعوتهم إلى مناقشتها والأخذ بها أو الرد عليها [2] ..

والحكيم الترمذى فى منازل العباد من العبادة أو منازل القاصدين إلى الله بدأ بعرض المنازل ، ووصف أهلها ، والمستحقين لها بحسب تحقق هذه الأوصاف للانخراط فى المنزلة التى تؤهل لها . وبعد أن عرض

---

(١) أنظر الحكيم منازل العباد من العبادة ص ٣٥ تحقيق الدكتور الجيوشى .
(٢)الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب منازل العباد من العبادة ص ٣١ .

الحكيم ذلك . أتى بالدليل على كل منزلة من القرآن الكريم والخبر المأثور . ويقينا أن الحكيم الترمذى كان يرمى إلى تأييد ما يراه ، ويدعو إليه من الأراء بالكتاب والسنة ، ويرد بطريق غير مباشر على هؤلاء الذين يتهمونه ويتهمون غيره من شيوخ الصوفية بالخروج على ما جاء به الكتاب [1] ...

وفى « نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول » يقيم الحكيم الترمذى الأصل الثالث والثلاثين والمائة تحت عنوان : « فيما يعلم به منزلة العبد عند الله تعالى [2] » ويسوق حديثا جاء عن جابر رضى الله عنه حيث قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله عز وجل ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه ، وإن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر فاغدوا وروحوا فى ذكر الله فى الأرض ألا فارتعوا فى رياض الجنة .. قالوا : وأين رياض الجنة يارسول الله ؟ قال : مجالس الذكر .. فاغدوا وروحوا فى ذكر الله واذكروه بأنفسكم [3] » ..

يقول الحكيم الترمذى بعد أن استند على هذا الحديث : « فمنزلة الله عند العبد إنما هو على قلبه على قدر معرفته أياه وعلمه به وهيبته منه وإجلاله وتعظيمه له وخشيته وحيائه منه ، والخوف من عقابه ، والرجل عند ذكره وإقامة الحرمة لأمرة ونهيه ، ورؤية تدبيره ، والوقوف عند أحكامه بطيب النفس والتسليم له بدنا وقلبا وروحاً ومراقبة لتدبيره فى أموره ، ولزوم ذكره والنهوض بأثقال نعمه وإحسانه ، وترك لمشيئته ، وحسن الظن به فى كل ما نابه . والناس فى هذه الأشياء يتفاضلون .

---

(١) راجع المصدر السابق ص ٣٠ .
(٢) الحكيم الترمذى نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول ص ١٦٧ .
(٣) راجع الحكيم الترمذى المصدر السابق .

فمنازلهم عند ربهم على قدر حظوظهم منها[1] » .

التوبـة :

« التاء . والواو والباء » كلمة واحدة ، تدل على الرجوع . يقال : تاب عن ذنبه أى رجع عنه[2] . وتاب الله عليه : وفقه للتوبة ، أو رجع عنه من التشديد إلى التخفيف . أو رجع عليه بفضله وقبوله[3] فالتوبة الرجوع إلى الله تعالى وهو أن يعطى من جوارحه لله تعالى ما يأمر به حتى يقيم العبودة التى لأجلها خلق[4] أو والتوبة بتحليلها الواقعى هى أنتقال وتحول فى خط الحياة ، وطبيعية السلوك ، لأنها نتاج تغير نفسى وفكرى يحدث فى أعماق الأنسان . والحكيم الترمذى يرى أن التوبة من باب رحمة الله بعبادة والامتنان عليهم . ونجد هذا واضحا فى قوله : ﴿ أن لله عباداً نظر إليهم بالرحمة ، فمن عليهم بالتوبة ، وفتح أبصار قلوبهم[5] ﴾ ويستند الحكيم الترمذى فيما ذهب إليه بقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم[6] ﴾ .. فوعد المغفرة والرحمة[7] إذن (المنُّ) بالتوبة — عند الحكيم الترمذى — من باب « الرحمة » وهؤلاء الذين من الله عليهم بالتوبة : « تمثل قبح المعاصى فى صدورهم حتى نظروا إلى سوء ماعاملوا الله به ، وانكشفت لهم العاقبة عن مسكن العاصين فبادروا بالنزوع عنها ،

---

(١) الحكيم الترمذى : نوادر الأصول فى أحاديث الرسول ص ١٦٧ .
(٢) أنظر معجم مقاييس اللغة مادة « توب » .
(٣) راجع الفيروزا بادى بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٢ ص ٣٠٤ .. .
(٤) الحكيم الترمذى نوادر الأصول ص ١٦٢ .
(٥) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٣٧ ..
(٦) سورة الأنعام الآية رقم ٤٥ .. .
(٧) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٥٢ ..

فقوى الله عزمهم ، وأيدهم بتوفيقه ، فكلما نزعوا عن معصية صقلوا قلوبهم عن نكتة تلك المعصية وسوادها[1] » ..

ويستند الحكيم فى توفيق الله وتأييده لهؤلاء الذين بادروا بالنزوع عن المعاصى على قوله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم[2] ﴾ ..

وأنت ترى مما ذكره الحكيم الترمذى واستدل به أن التوبة تعبر عن حب الله لعباده وكمال صفات العفو والرحمة لديه سبحانة وتعالى . وهى تعبر عن استمرار فيوضات اللطف والخير وشمولها لمسيرة الإنسان ، ليندمج فى طريق الخير ، بعيدا عن الانحراف والتيه .

والحكيم الترمذى ــ كما قد وضح أمامنا ــ يذهب إلى أن التوبة منة من الله يمن بها على من يشاء من عباده .

ولكن لنا ههنا أن نتساءل ؟ إذا كان الحيكم يرى أن التوبة من باب « المنة » فكيف تكون التوبة مقاماً أو منزلة . والمقامات كما يقول القشيرى « مكاسب » والأحوال مواهب[3] ؟ فهل يعنى هذا أن الحكيم الترمذى لا يرى تلك التفرقة بين الأحوال والمقامات من حيث أن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ؟ ..

□ يبدو لنا أن أهل السلوك حينما يقولون بأن المقامات مكاسب فليس معنى ذلك إلغاء « المنة الإلهية » فى هذه الحالة إلغاء تاماً بل معناه

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٣٧ ..
(٢) سورة التوبة الآية رقم ١١٨ ..
(٣) القشيرى الرسالة القشيرية جـ١ ص ٢٠٦..

أن الجهد المبذول من السالك تحفه المنة بدءًا وإنتهاء ... فالتجربة الصوفية أو السلوك الصوفى يتحقق ويظهر فى مجال المجهود الإنسانى والرياضة والمجاهدة ، ومجال المنة أى العطاء الإلهى الفائق (فهو إلهى من حيث مبدؤه الفاعل ، وإنسانى من حيث مظهره القابل[1]) ..

☐ كذلك يضاف إلى ما سبق أن كون « التوبة » منه لا ينفى أن للعبد جهداً بشكل ما فى تقبل هذه المنة أو فى استئهاله لهذه المنة .

☐ ولا بد لنا هنا من أن نفرق بين أشكال من المنازل والمقامات . حيث أن هناك منازل ومقامات عند الحكيم الترمذى تقوم على الجهد المبذول كمنزلة الزهد فى الدنيا ، ومنزلة عداوة النفس . وهناك منازل ومقامات تقوم على الجهد المبذول الذى تحفه المنة بعين الرحمة ، وعين اللطف وعين الاجلال كمنزلة قطع الهوى ، ومنزلة الخشية ، ومنزلة القربة ، ومما يلحظ بوضوح أن محى الدين بن عربى يلتقى مع الحكيم الترمذى فيما ذهب إليه من أن منزلة التوبة تقوم على الجهد المبذول والمنة .

يقول ابن عربى فى قوله تعالى : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا[2] ﴾ . فهذه توبة امتنان . فإذا تاب عليهم بالمغفرة بعد توبتهم كانت هذه التوبة الإلهية جزاء . لا يتخلص الامتنان الإلهى فيها إلا على بعد وهو أن يرجع العبد فى توبته إلى التوبة الأولى الإلهية التى جعلته أن يتوب . وتوبة امتنان أيسر من توبة الجزاء . وهى توبة الجواد الواهب المحسان الذى يعطى لينعم لا لعلة موجبة عقلا

---

(١) راجع الدكتورة سعاد الحكيم المعجم الصوفى ص ٦٨٥..
والدكتور عثمان يحى مقدمه ختم الأولياء ص ٩٨ ، ١٠٥ ..
(٢) سورة التوبة جزء من الآية رقم ١١٨ ..

وشرعاً[1] .. إذن التوبة الأولى من الله ابتداء يهب بها للعبد العمل على استغفاره حتى يصل بهذا العمل إلى التوبة الثانية التى استحقها على عمله[2] .. ويذكر الهجويرى أن أبا حفص الحداد[3] قال : « ليس للعبد فى التوبة شىء لأن التوبة إليه لا منه » وبهذا القول لا تكون التوبة من كسب العبد لأنها موهبة من مواهب الحق سبحانة وتعالى وهذا القول يتعلق بمذهب « الجنيد[4] » .

ولعلنا نفهم من وراء ذلك أن كثيرا من السالكين يذكرون أن التوبة منة من الله تعالى ابتداء . فلو انفتحت أبعاد النفس على هذه الآفاق الرحبة ، واستوعبت العقول ما تحمل كلمة التوحيد من معان وصفات تختص بها الذات الإلهية ، وعاشت فى ظلال أشعتها ، وانسياب أنوارها . لأدرك الإنسان أنه يعيش فى ظل آثار هذه الصفات ، وأنها حقائق تتجلى فى عالم الوجود ، وأنها ذات صلة بكيان الإنسان ووجوه . ولأدرك أن لكل صفة ربانية متجلية فيوضات تسد ثغرة فى نفس الإنسان ، وتجد أملاً فى حياته . لذا فإن السعادة ستغمره ، وسيشعر بمعنى الوجود كاملاً لو أنه عاش يستوحى

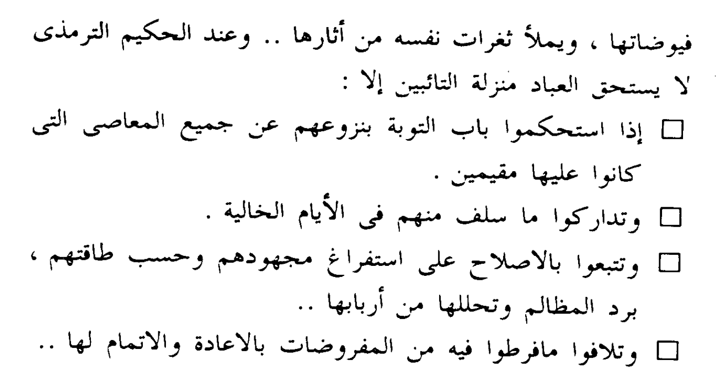
---

(١) ابن عربى الفتوحات المكية جـ٤ ص ٣٠٣ ..

(٢) الدكتورة سعاد الحكيم المعجم الصوفى ص ١٠٢١ .

(٣) هو أبو حفص عمرو بن سلمه . وهو من أهل قرية يقال لها [كوردا باذ] على باب مدينة نيسابور إذا خرجت إلى بخارى . كان أحد الأئمة والسادة ، توفى سنة سبعين ومائتين وقيل سنة سبع وستين ومائتين [أنظر السلمى طبقات الصوفية ص ٢٧ ط كتاب الشعب سنة ١٣٨٠ هـ تحقيق الدكتور أحمد الشرباصى] ..

(٤) الجنيد هو أبو القاسم الجنيد بن الخراز وكان أبوه يبيع الزجاج فلذلك كان يقال له « القواريرى » أصله من « نها وند » من بلاد الجبل ومولده ومنشئوه بالعراق . وكان فقيها تفقه على أبو ثور ، وكان يفتى فى حلقته وصحب السرى السقطى والحارث المحاسبى ومحمد ابن القصاب البغدادى وغيرهم . وهو من الأئمة الكبار توفى سنة سبع وتسعين ومائتين .. «أنظر السلمى طبقات الصوفية ص ٣٦ » وراجع الهجويرى كشف المحجوب جـ٢ ص ٥٤١ » ..


فيوضاتها ، ويملأ ثغرات نفسه من أثارها .. وعند الحكيم الترمذى لا يستحق العباد منزلة التائبين إلا :

- ☐ إذا استحكموا باب التوبة بنزوعهم عن جميع المعاصى التى كانوا عليها مقيمين .
- ☐ وتداركوا ما سلف منهم فى الأيام الخالية .
- ☐ وتتبعوا بالاصلاح على استفراغ مجهودهم وحسب طاقتهم ، برد المظالم وتحللها من أربابها ..
- ☐ وتلافوا مافرطوا فيه من المفروضات بالاعادة والاتمام لها ..

حتى إذا بلغوا إلى المبلغ الذى لا يحيك فى صدورهم شيء من المعاصى ، ولا من الذى هم عليه مقيمون من أن يكونوا قد خرجوا إلى الله من حقوقه التى أوجب عليهم ، وألزمهم حسب وسعهم فعندها استوجبوا اسم التائبين واسم المتقين . وهو أدنى منازل المريدين الله ، والسائرين إليه[1] » ..

وليس هذا الفهم الذى يشير إلى أن السالكين إذا بلغوا مبلغا يخرجون فيه إلى الله يستوجبون اسم التائبين . ليس هذا الفهم الذى ذكره لنا الحكيم الترمذى مفروضاً على الإسلام أو غريبا عنه بل هو روح الإسلام .

فنظره الحكيم الترمذى تنطلق من الإسلام حيث يقرر أن للعباد حقا على الله كتبه الله على نفسه إذا عبدوه ولم يشركوا به أن يدخلهم الجنة . قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًّا فى التوارة والانجيل والقرآن ومن أو فى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من البعادة ص ٣٧ ..

هو الفوز العظيم [1] ﴾ .. وقال رسول الله ﷺ « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولم يشركوا به شيئا وحق العباد على عز الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئا [2] » ..وهولاء الذين يستحقون اسم « التائبين » واسم « المتقين » عند الحكيم الترمذى . تكون قلوبهم مصغية إلى الآمر والزاجر . كلما أمروا إئتمروا وكلما زجروا انزجروا [3] ويفسر الحكيم الترمذى « الآمر والزاجر » الذى تصغى إليه قلوب التائبين والمتقين بأنه : « واعظ الله فى قلب كل مؤمن [4] » يقول الحكيم الترمذى وبهذا جاءنا الخبر عن رسول الله ﷺ . وهو الشاهد الصدق من الله . ألا تسمع إلا ما أومأ إليه رسول الله ﷺ حيث أتاه السائل عن البر والأثم فقال : البر ما اطمئان إليه القلب والأثم ما حاك فى صدرك وتردد ».

(١) سورة التوبة الآية رقم ٦ .

(٢) — أخرجه البخارى فى صحيحة كتاب اللباب باب « ارداف الرجل خلف الرجل » جـ١ ص ٣٩٧ و ٣٩٨ عن معاذ بن جبل ط السلفة .

— وأخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق باب من جاهد نفسه فى طاعة الله جـ١١ ص ٣٣٧ عن معاذ بن جبل .

— وأخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى عن معاذ بن جبل جـ١٣ ص ٣٤٧ الطبعة السلفية .

— وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحة كتاب الإيمان باب الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة جـ١ ص ٥٨ .

— وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب الإيمان باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة جـ٥ ص ٢٦ ، ٢٧ عن معاذ بن جبل وقال أبو عيسى حسن صحيح .

— وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ما يرجى من رحمة أن يوم القيامة جـ٢ ص ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ عن معاذ بن جبل .

— وأخرجه الإمام فى سنده جـ٣ ص ٢٦٠ ، ٢٦١ عن معاذ بن جبل ط بيروت .

(٣) الحكيم الترمذى منازل العباد من العباد ص ٣٨ ..

(٤) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٣٨ ..

ولا يفوت الباحثين إن يعرفوا أن التائبين الذين استحقوا اسم « التائبين » عند الحكيم الترمذى . هم من كانت توبتهم « مقبولة » فلا يدخل فى الاستحقاق إلا من قبلت توبته . لأن « التوبة — عند الحكيم الترمذى — على ثلاثة أوجه : توبة مقبولة ، وموقوفة ، ومردودة . فعلامة المقبولة حلاوة الطاعة وأهلها ووحشة الذنوب وأهلها . وأما الموقوفة فعلامتها ألا يجد حلاوة الطاعة بل يجد ألم الطاعة . وأما علامة المردودة فالعجب والكبر[1] » .. ولعلنا نفهم من علامات التوبة المقبولة .

☐ حلاوة الطاعة وأهلها .

☐ ووحشة الذنوب وأهلها .

إن التوبة عند الحكيم الترمذى لا يكفى أن تكون مقبولة بطلب توبة الجوارح عن الذنوب . وانما لا بد من تنقية القلب تنقية كاملة مما ران عليه مما اكتسبه الإنسان من الآثام .

ان الحكيم الترمذى يكشف عن منهج ذوقى فى السلوك له شأنه . حيث يعبر عن ذلك الصراع الخفى بين الاقدام والاحجام فى أدق تعبير « حلاوة الطاعة ووحشة الذنوب » .. ومن هنا نفهم أن منزلة التوبة عند الحكيم الترمذى من الناحية السلوكية تهتم اهتماماً كبيرا بالجانب النفسى فى أعماق الإنسان لأن التوبة تعبر بكل مظاهر تحققها عن موقف نفسى أخذ ينمو فى داخل الإنسان ، ويمتد إلى خارجه بشكل تصحيح سلوكى ، ومواقف إنسانية مستقيمة . فى محاولة مخلصة لا عادة النفس إلى حالتها الطبيعية وتفجير ينابيع الخير فى طرق النفس النامية باتجاه الغايات الإنسانية السليمة ..

---

(١) الحكيم الترمذى معرفة الأسرار ص ٤٣ ..

الزهد فى الدنيا

إن الزهد : أصل يدل على قلة الشيء . والزاهد قلت فى عينه الدنيا والزهيد الشيء القليل [1] . وكلمة : « زهد » و « زهاد » أصبحتا علماً على طائفة مع مطلع النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة . وكان هؤلاء الرواد ممثلين بطائفتين يصورون الحياة الزاهدة فى عصر الرسول ﷺ : : طائفة الفقراء وطائفة أهل الصفة [2].

وقد ذكرت الدكتورة سعاد الحكيم مؤلفة « المعجم الصوفى » أن ابن عربى انفرد فى النظر إلى الزهد وتعظيمه ، حيث جعله من بدايات الطريق [3] . واستندت إلى نصوص وردت عن ابن عربى . منها قوله : « وهو « الزهد » من المقامات المستصحبة للعبد » [4] وقد وجدنا أن القول بانفراد ابن عربى بجعل الزهد مقاماً من مقامات السالكين فيه قصور حيث أن الحكيم الترمذى قد سبق ابن عربى فى ذلك حيث جعل المنزلة الثانية من منازل العباد السالكين هى « منزلة الزهد فى الدنيا » [5] ومنزلة الزهد فى الدنيا تأتى عند الحكيم الترمذى بعد منزلة التوبة ... يقول الحكيم : « إن لله عبادًا قطعوا هذه العقبة فتخطوا إلى الزهد فى الدنيا لما استنارت قلوبهم بالتطهير من الذنوب » [6] . فأنت ترى أن منزلة الزهد تلى منزلة التوبة التى طهرت القلوب من الذنوب فاستنارت . وبعد ذلك يبدأ التائبون بالنظر إلى باطن الدنيا بأبصار قلوبهم ، فيهجمون على دناءتها وعيوبها ومحاتف مهاويها ، فيعافونها ويستقذرون ذكرها

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة مادة « زهد » وراجع الحكيم الترمذى نوادر الأصول ص ١٤٤ .

(٢) راجع الدكتورة سعاد الحكيم المعجم الصوفى ص ٥٥٢ ، ٥٥٣ .

(٣) راجع المصدر السابق ص ٥٥٤ .

(٤) ابن عربى الفتوحات المكية جـ ٢ ص ١٧٨ .

(٥) انظر الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٣٩ .

(٦) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٣٩ .

ويتجنبون أسبابها » [1] فالزهد مرتبة قلبية .

والزاهدون ــ عند الحكيم ــ من قلَّت فى أعينهم الدنيا بما فتح لهم من الغيب ، فرأوا الآخرة ببصر قلوبهم . فاستقلوا هذه الدنيا ، وتهاونوا بها وشخصوا ببصرهم إلى ضامن الرزق الذى ضمن لهم رزقهم ، ووثقوا بضمانه » [2] فهم على ثقة من ربهم فى شأن الرزق ، فسكنت قلوبهم ، وأمنت القوت [3] .

ويستدل الحكيم الترمذى فيما ذهب إليه بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . والتى منها قوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ [4] . فلا تتعد بنظرك إلى ما متعنا به أصنافاً من الكافرين . لأن هذا المتاع زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، يمتحن الله به عباده فى الدنيا ، ويدخر الله لك فى الأخرة ما هو خير وأبقى من هذا المتاع [5] . ومن الأدلة التى يستدل بها الحكيم الترمذى ماروى عنه ﷺ فى قوله : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » فالمسجون فى نهمته الخروج [6] .

يقول الحكيم الترمذى :

فالداران خلقتا للأدميين . فهذه دنيا وتلك آخرة . وسميت دنيا لأنها أدنى إليك من تلك . وسميت فى موضع آخر : أولى فقال فى

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٣٩ .
(٢) راجع الحكيم الترمذى نوادر الأصول ص ١٤٤ .
(٣) راجع الحكيم الترمذى آداب المريدين وبيان الكسب ص ١٧٧ .
(٤) سوره طه الآية رقم ١٣١ .
(٥) المجلس الأعلى للشئون الاسلامية المنتخب من التفسير ص ٤٧٠ .
(٦) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٠ .

تنزيله : ﴿ وإن لنا للأخرة والأولى ﴾ (١) وسميت فى موضع آخر عاجلة . وتلك آجلة . فهما داران . احداهما : ثواب لأعمال هذه الدار فنعيم تلك الدار ثواب دائم لا ينقص ولا يفنى ابداً . ونعيم هذه الدار من نثارة تلك الدار وهى بلغة ومتعة وزاد وأهلها مجتازون إلى تلك الدار . فمن ترك العبودة وذهب برقبته فضيع أمر الله وفرائضه وتعدى فى حدوده بهذه الجوارح السبعة : بطنه ، ولسانه ، وفرجه ، ويده ، ورجله ، وسمعه ، وبصره . فقد هيأ له سجنا مشحونا بغضبه وسخطه وناره وألوان العذاب . فإنما ذم من الدنيا كل شىء خلا من طاعة الله عز وجل ، فإذا عصى الله تعالى بذلك الشىء ذهبا كان أو فضة أو مأكولا أو مشروبا أو ملبوساً . فتلك دنيا مذمومة .. » (٢) .

ومما يستدل به الحكيم الترمذى ما ذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما آدى إليه » (٣) يقول

---

(١) سورة الليل الآية رقم ١٣ .
(٢) الحكيم الترمذى آداب المريدين وبيان الكسب ص ٨٦ .
(٣) — أخرجه الترمذى فى سننه كتاب « الزهد » باب « معة فى هوان الدنيا على الله عز وجل . ولفظه عند الترمذى إلا أن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم » . وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب .
— وأخرجه ابن ماجه فى سننه . كتاب « الزهد » باب مثل الدنيا ولفظه « إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما » جـ ٢ ص ١٣٧٧ .
— والبغوى فى شرح السنة جـ ١٤ ص ٢٣٠ من رواية لعبد الله بن ضمرة مرفوعا ، وأخرى عن أبى هريرة .
— وابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » باب « الحث على طلب العلم وتعليمه » جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٨ .
— وأبو نعيم فى الحلية جـ ٣ ص ١٥٧ من رواية جابر وفى جـ ٧ ص ٩٠ عن محمد بن المنكدر عن جابر .
— وأورده السيوطى فى الجامع الصغير عن جابر بلفظ « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان منها لله عز وجل » وعن أبى هريرة بلفظ « الدنيا ملعونة ملعون =

الحكيم بعد أن استدل بالحديث الشريف : يعنى الطاعات وجميع ما ابتغى به وجه الله تعالى من الأعمال . فهو الذى يأوى إلى ذكر الله عز وجل . فكم من درهم عصى الله تعالى به فتلك دنيا مذمومة غرته حلاوتها ، فأمسكه لنهمته حتى عصى الله فيه . وآخر ملكه لله ، وأمسكه لله ، حتى انفقه فى حق . فأطاع الله فيه . فتلك آخرته ، عملها فى دار الدنيا . وقال فى تنزيله ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم ومشكورا ﴾ [1] فالكافر نهمته فى الدنيا وما فيها وهو عن الأخرة غافل ، والمؤمن نهمته الأخرة وما فيها » [2] .

وإذا تأملنا فيما جاء عن أبى سعيد الخراز فى « الزهد » وجدنا أن الزهد عنده « نفى الرغبة فى الدنيا عن القلب شيئا بعد شىء » [3] . وأن الزاهدين على مناح شتى :

- ☐ فمنهم من زهد لفراغ القلب من الشغل وجعل همه كله فى طاعة الله تعالى وذكره وخدمته ، فكفاه الله عند ذلك .
- ☐ ومنهم من زهد لخفة الظهر وسرعة الممر على الصراط إذا حبس أصحاب الأثقال للسؤال .

= ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما » جـ ٢ ص ١٧ .
ـ والطبرانى فى الأوسط عن ابن مسعود ورمز له بالحسن .
ـ وقال المناوى : قال الطبرانى لم يروه عن ثوبان عن عبده إلا أبو المطرف المغيرة بن مطرف . قال الهيثمى ولم أر من ذكره . فيض القدير جـ ٣ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ .
ـ وأشار إليه المنذرى فى الترغيب والترهيب كتاب العلم باب فضل العلم جـ ١ ص ٩٨ وعزاه للترمذى وابن ماجه والبيهقى وقال الترمذى حسن .

(١) سورة الاسراء الآيتان رقم ١٨ ، ١٩ .
(٢) الحكيم الترمذى آداب المريدين وبيان الكسب ص ٨٧ .
(٣) أبو سعيد الخراز كتاب الصدق ص ٤٢ تقديم وتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود .

□ ومنهم من زهد رغبة فى الجنة واشتياقا إليها ، فسلى عن الدنيا وعن لذاتها حتى طال به الشوق إلى ثواب الله تعالى .

□ وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا . هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته فكانوا عبيدًا عقلاء عن الله عز وجل [1] .

فالزهد عند الخراز : نفى الرغبة فى الدنيا . وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا هم الذين وافقوا الله سبحانه وتعالى فى محبته . وما جاء عن أبى سعيد الخراز قريب مما ذكره الحكيم الترمذى .

وإذا كان الزهد عند الحكيم الترمذى وأبى سعيد الخراز : الاقلال من شأن الدنيا ونفى الرغبة فيها فإن ابن عطاء الله السكندرى يوجب مقام الزهد عنده للزاهد أن يخرج من قلبه حب الدنيا وحسد أهلها على ماهم فيه . يقول ابن عطاء الله السكندرى : « كفى بك جهلاً أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا وتشغل قلبك بما عندهم فتكون أجهل منهم لأنهم اشتغلوا بما اعطوا واشتغلت أنت بما لم تعط [2] » .

وإن الباحث يجد أن زهد السالكين عند الحكيم الترمذى يتجه نحو الاقلال من شأن الدنيا وعدم تعلق القلب بها . وتلك نظرة حكيمة يعود بها الحكيم الترمذى إلى قوله تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أونبئكم بخير من ذلكم ﴾ [3] . يقول الحكيم بعد

(١) انظر أبو سعيد الخراز الطريق إلى الله أو كتاب الصدق ص ٤٣ ، ٤٥ بصريف واختصار .

(٢) ابن عطاء الله السكندى تاج العروس على هاش التنوير ص ١١ .

(٣) سورة ال عمران الآية رقم ١٤ ، ١٥ .

ذلك : فوصف الجنات مع الخلد فيها والأزواج المطهرة والرضوان ، يزهدهم فى هذه ، ويقللها فى أعينهم [1] .. ويذكر الحكيم الترمذى أن من لم يفتح بصره فى الآخرة ، وعظم قدر الدنيا فى عينه ، حتى وجد شيئا منها احتدت مخاليبه فيها ، وعلق قلبه بها ، ولم يستبن عند قلبه ضمان الرزق . وكلما ذكر الفقر أوجس فى نفسه خيفة فركن إلى ما فى يده ، فهذا وإن جانب الدنيا ولبس المسوح وأكل الحشيش فليس بزاهد وإنما هو متزهد » [2] . فنظرة الحكيم — كما ترى — تتوجه إلى الظاهر والباطن ، وترسم للسالكين طريق السلوك عند الوصول إلى المنزلة الثانية منزلة « الزهد فى الدنيا » حيث يتوجه السالك فى ترقيه إلى إفراغ القلب من التعلق بالدنيا ، لينعم بالآخرة التى أبصرها ببصر قلبه حين فتح الله عليه وحيث يرى السالك أن الدنيا قليلة بجانب ما فى الآخرة من خير .

عداوة النفس :

النفس عند الحكيم الترمذى : « أرضى شهوانى . ميال إلى شهوة عقب شهوة ، ومنية على إثر منية ، لا تهدأ ولا تستقر . فأعمالها مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . مرة عبودية ، ومرة ربوبية ، ومرة استسلام ، ومرة تملك ، ومرة عجز ، ومرة اقتدار ، فإذا ريضت النفس وذللت وأدبت انقادت » [3] .

ويذكر الهجويرى أن المتصوفة متفقون على أن النفس فى حقيقتها منبع الشر وقاعدة السوء . وهم متفقون على أنها السبب فى ظهور الأخلاق الدنيئة والأفعال المذمومة . وهذه على قسمين أحداهما : المعاصى . والأخرى أخلاق السوء . مثل الكبر ، والحسد ، والبخل ،

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٥٩ .
(٢) الحكيم الترمذى نوادر الأصول ص ١٤٤ .
(٣) الحكيم الترمذى نوادر الأصول ص ٢٠١ .

والغضب ، والحقد ، وما يشبه هذا من المعانى المذمومة فى الشرع والعقل ويمكن دفع هذه الأوصاف عن النفس بالرياضة مثلما تدفع المعصية بالتوبة (١) .

والسالكون الطريق ، والمريدون الله عز وجل الذين قطعوا عقبة الزهد فى الدنيا . لابد وأن يواجهوا نفوسهم لأن للنفوس مسارب ومسالك قد تفسد على السالك وقته وحاله . يقول الحكيم الترمذى : « إن لله عبادًا قطعوا هذه العقبة ، ونصبوا العداوة لأنفسهم فى ذات الله » (٢) .

ويذكر الحكيم أن المؤمن قد ابتلى بالنفس وأمانيها ، وأعطيت النفس ولاية التكلف بالدخول فى الصدر . والنفس معدنها فى الجوف ، وموضع القرب وهيجانها من الدم وقوة النجاسة فيمتلىء الجوف من ظلمة دخانها وحرارة نارها ثم تدخل فى الصدر بوسوستها وأباطيل أمانيها ابتلاء من الله اياه حتى يستعين العبد بصدق افتقارة ودوام تضرعه لمولاه (٣) .

والنفس اسم جنس وجوهر بعضها أطيب من بعض وبعضها أخبث من بعض وأشد ظلما وأكثر فجوراً وهى النفس الأمارة . والنفس طابت بنور ظاهر الاسلام من خبث ظاهر النفس وهى تزداد طيبا بصدق المجاهدة إذا قاربها توفيق الله تعالى (٤) .

فمنزله عدواة النفس — عند الحكيم الترمذى — تأتى بعد قطع منزلة « الزهد فى الدنيا » . والنفس لها خدعها ومكايدها وولوعها بما ذم الله وزجر عنه . لالها دعة ، ولاحياء ، ولاوقار ، ولا طمأنينة . إنما

(١) الهجويرى كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٢٧ .
(٢) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٢ .
(٣) الحكيم الفروق ص ٤٠ .
(٤) الحكيم الفروق ص ٨٢ .

هى كالبهيمة لا ترفع رأسها حتى تقضى نهمتها وحاجتها من الدنيا (١) .
ويقول الحكيم الترمذى : إن الله سبحانه وتعالى أنبأنا فى تنزيله شأن النفس فقال : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ (٢) . ولم نجد فى التنزيل خصلة مذمومة إلا وهى منسوبة إلى النفس . قوله : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ﴾ (٣) ،﴿ وكذلك سولت لى نفسى ﴾ (٤) وقال : ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه ﴾ (٥) وقوله عز وجل : ﴿ قلتم أن هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ (٦) . وقوله عز وجل : ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم ﴾ (٧) وبعد أن يستدل الحكيم الترمذى بهذه الأيات يقول : وفى أى كثير ينبئك أن النفس مأوى كل سوء (٨) . وبعد ذلك ينتقل الحكيم إلى الاستدلال على شأن النفس بما جاء فى الخير ، فيروى عن ، رسول الله ﷺ أنه قال : « ليس عدوك إن قتلك أدخلك الله به الجنة ، وإن قتلته كان لك نورًا . ولكن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » ومما يجدر أن تعنى به أن النفس عند الحكيم الترمذى : نفسان : نفس ظاهرة ، ونفس باطنة . فأما الباطنة . فهى المذمومة . وأما الظاهرة فهى تابعة لمن قادها وغلب عليها واستولى (٩) . يقول الحكيم الترمذى ومن ذلك قوله تعالى فيما يحكى عن شهادة يوسف بالسوء فقال : ﴿ وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ (١٠)وقوله تعالى :

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٢ .
(٢) سورة يوسف الآية رقم ٥٣ .
(٣) سورة يوسف الآية رقم ٨٣ .
(٤) سورة طه الآية رقم ٩٦ .
(٥) سورة المائدة الآية رقم ٣٠ .
(٦) سورة آل عمران الآية رقم ١٦٥ .
(٧) سورة الحديد الآية رقم ١٤ .
(٨) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٦٣ .
(٩) الحكيم الترمذى غور الأمور ص ٥ ٩ . ب .
(١٠) سورة يوسف الآية رقم ٥٣ .

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ [١] فإنما تجادل النفس الظاهرة النفس الباطنة وقوله : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ﴾ [٢] وقوله : ﴿ تعلم ما فى نفسى ﴾ [٣] فهذه صفة النفس الباطنة [٤] .

أرأيت كيف كان الحكيم دقيقا فى الكشف عن صفة النفس الباطنة . إنها كما يقول الحكيم : « دار حرب [٥] » أما النفس الظاهرة فهى تابعة لمن غلب عليها واستولى . فإن غلب عليها الملك وهو النور والعقل كانت تابعة لهما . وأن غلبت عليها النفس الباطنة وانقادت لها فمن قوله ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ [٦] لغلبة الملك عليها ﴿ وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدًا ويحذركم الله نفسه ﴾ [٧] .

وذلك أن هذه الباطنة هى نفس الشيطان ولها شأن [٨] . وإذا كان ذلك صفة النفس الظاهرة وصفة النفس الباطنة ، فإن طريق أهل الانابة شاق صعب السلوك ولذلك كان لابد للمريدين السالكين من إجتياز الطريق . ولا يتحقق ذلك تحقيقا تاماً إلا بمواجهة المرء نفسه مواجهة حاسمة . ولا شك أن الباحث فى مذهب الحكيم الترمذى فى « النفس » حيث أنها تابعة لمن غلب عليها واستولى . يجد أن مذهب الحكيم فيما

---

(١) سورة النحل الآية رقم ١١١ .
(٢) سورة طه الآية رقم ٩٦ .
(٣) سورة المائدة الآية رقم ١١٦ .
(٤) الحكيم الترمذى غور الأمور ص ٥ ٩ . ب .
(٥) الحكيم الترمذى غور الأمور ص ٣٨ .. ٩ .
(٦) سورة آل عمران الأية رقم ٣٠ .
(٧) سورة آل عمران الأية رقم ٣٠ .
(٨) الحكيم الترمذى غور الأمور ص ٥ . ١ ب .

ذهب إليه غير مذهب الملامتية [1] حيث يتهمون النفس ويلومونها فى كل ما يصدر منها من قول أو عمل أو يخطر لها من خاطر . وقد وقفوا من النفس موقف الاتهام والخصورة دائما . فلا يرون للنفس معصية إلا اعتبروها من شيمتها ، ولا طاعة إلا شكوا فى إخلاصها فيها ، وتوجسوا خيفة من أمرها . والنفس فى أصل طبيعتها فى نظرهم مجبوله على الجهل والمخالفة والرياء . فإساءة الظن بها طريق لكشف خباياها وإظهار نزعاتها[2] . ولاشك أن هذا إغراق قد يبدو فى نظر البعض مغالاة لامبرر لها . كما يبدو الاستغراق فيه صارفاً عن الاستشراف إلى آفاق أعلى

---

(١) الملامتية : فرقة صوفية ظهرت فى النصف من القرن الثالث الهجرى بمدينة نيسابور بخراسان . اطلق عليها اسم الملامتية أو الملامية . أسسها رجال من أصدق رجال الطرق فى ذلك القرن الذى امتاز فى تاريخ التصوف الاسلامى بالورع والتقوى الحقيقيين . كما امتاز بقوة العاطفة الدينية وجهاد النفس العنيف ومحاربتها ومحاسبتها على كل ما فرط منها ، وما يحتمل أن يفرط منها .

والملامتية : لا يرون لنفوسهم حظا على الإطلاق ، ولا يطمئنون إليها فى عقيدة أو عمل ظنا منهم أن النفس شر محضى ، وأنها لا يصدر عنها إلا ما وافق طبعها من رياء ورعونة . ولذلك وقفوا منها دائما موقف الاتهام والمخالفة . [راجع الدكتور أبو العلاء عفيفى الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٣ و ١٥] ط البابى الحلبى ١٣٦٤ هـ .

وهم يركزون تركيزا شديدًا على معالجة النفس من عيوبها ورعوناتها واتهامها فى كل شأن من شئونها فعلا أو تركا . ومحاولة التخلص من حضورها ومن شهودها حتى يصفو لهم حال الاخلاص لأن الاخلاص هو الأساس الذى يمكن أن تزكو به أعمالهم . ومثل هذا المنهج يقتضى منهم أن تكون معظم تعليماتهم متجهة إلى التضييق على النفس . وذلك عن طريق النهى المستمر ، والمنع المستمر والاتهام المستمر . فتعاليمهم فى جملتها مصبوغة بصبغة سلبية حيث يذكرون عيوب النفس ونقائصها للتخلص منها أكثر من ذكرهم الفضائل والكمالات التى ينبغى أن تتحلى بها .

[راجع الدكتور عبد الفتاح بركة خمس رسائل للحكيم الترمذى ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة العدد الأول ١٤٠١ هـ] .

(٢) انظر الدكتور أبو العلاء عفيفى الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٥٧ ، ٥٨ .

وأوسع . وعلى الرغم من اتفاق الحكيم الترمذى مع الملامتية فى نظرته المبدئية إلى النفس واتهامها . ومن كونه ذا مذهب فى رياضتها وتأديبها . إلا أن الحكيم لا يقبل نظرة الملامتية التى تحصر المريد فى هذا المنهج وحده ، فتصرفه عن منهج أخر يتكامل معه [1] . ولهذا يقول : ووجدنا العلم نوعين :

ــ نو ع منهماالعلم بالنفس ودواهيها وعيوبها .

ــ ونوع منهما العلم بالله تعالى .

فإن اشتغل العبد بمعرفة العيوب بقى عمره فيها ، وفى التخلص منها . وان اشتغل بمعرفة العلم بالله كان ذلك دواءه . لأن علمه به يؤديه إلى حياة قلبه ، وازهاق نفسه . فإذا زهقت النفس بما ورد عليها من التجلى حى القلب بربه » [2] . فالحكيم كما ترى يحذر من الاشتغال بالنو ع الأول من العلم لأن الأنسان لو شغل نفسه بذلك العلم لقضى عمره كله فى هذه المحاولة دون أن يصل إلى ما يريد ، ولم يتيسر له فرصة يتعرف فيها إلى الله . أما العلم بالله تعالى فإن فيه الدواء الناجح والسبيل القويمة إلى الفوز بالقرب من الله [3] . وذلك أن النفوس بناها ــ كما يقول الحكيم ــ على سبع « على الشهوة ، والرغبة ، والرهبة ، والغضب ، والشك ، والشرك ، والغفلة . فإذا حى القلب بالايمان خرج من هذه السبع قلباً . وهى فى النفس بواقى ، ثم تصير هذه السبع فى الصدر غطاء على القلب يتراءى فى كل أمر وعلى كل حال . ثم لا يزال العبد فى مزيد من ذلك بنور الله الايمان فى قلبه . فبقدر ما يستنير فى

(١) راجع الدكتور عبد الفتاح بركة خمس رسائل للحكيم الترمذى ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة المجلد الأول ١٤٠١ هـ .

(٢) الحكيم الترمذى كتاب إلى ابى عثمان سعيد النيسابورى ص ٤٤ منبر الاسلام ٩٤ س ٤٠ تحقيق الدكتور الجيوشى .

(٣) انظر الدكتور الجيوشى كتاب إلى أبى عثمان ص ٤٢ منبر الاسلام عدد ٩ السنة ٤٠ .

صدره يذوب هذا الغطاء عن قلبه ، وينكشف له عن حقائق الأمور ، حتى يصير من أهل اليقين . فإذا أيقن تلاشت هذه النفس وذهبت ، فصارت الرغبة إليه ، والرهبة منه ، والغضب له »[1] .

ويذكر الحكيم الترمذى إن ابن أدم مطبوع على سبعة وهى : العفلة ، والشك ، والشرك ، والرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغضب . فهذه سبعة أخلاق . فإذا جاء نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحده ، ذهبت الغفلة وذهب الشك والشرك ، فهو يعلم ربه يقينا وينفى عنه الشرك ، وزال الشك عنه . ثم لما جاءت الشهوة فأظلم الصدر بدخانها ونيرانها ذهب ضوء عمله واستنارته وتحير فى أمر ربه عز وجل كالشك ، وظهر شرك الأسباب . فكلما ازداد العبد معرفة وعلما بربه عز وجل واستنار قلبه وصدره انتقص من الغفلة ومن هذه الخصال السبع كلها حتى يمتلىء صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله . فعندما كشف الغطاء ، وصار يقينا وزايله شرك الأسباب ، وماتت الشهوة ، وذهب الغضب ، وذهبت الرغبة والرهبة فلا يرغب إلا إلى الله عز وجل ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يغضب إلا فى ذات الله عز وجل ، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل »[2] .

فالحكيم يشير إلى عناصر النفس السبع ، وهى : الشهوة ، والرغبة ، والرهبة ، والغضب ، والشك ، والشرك ، والغفلة . ويجعل مقابل هذه العناصر نور الايمان الذى يذهب هذه الحجب عن القلب . « فإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها ، وسلطان العقل وزينته

(١) الحكيم الترمذى رسالة الحكيم الترمذى إلى ابن عثمان ص ٤٣ ، ٤٤ مجلة منبر الاسلام عدد ٩ السنة ٤٠ .

(٢) الحكيم الترمذى حقيقة الأدمية ص ١٠٦ .

الحكيم الترمذى الرياضة وادب النفس ص ٨٥ ، ٨٦ .

وبهجته . احتد الذهن ، واستنار بالعلم ، وانتشر وأشرق ، وقوى القلب . فقام منتصبا متوجها بعين الفؤاد إلى الله تعالى ، وجاء المدد والعطاء ، وظهرت العزيمة على ترك المعصية العرضة . فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس ، ورفض ما عزمت عليه . فانقمعت النفس وذابت ، وسكن غليان الشهوة ، وماتت اللذة ، وسكنت العروق » (١) فالسالكون المريدون الذين وصلوا إلى منزلة عداوة النفس أمروا بمجاهدة النفس ، وَندبوا إلى رياضتها (٢) . فراضوا أنفسهم وأدبوها ، بمنعها الشهوات التى أطلقت لهم ، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بدمنه ، كهيئة المضطر حتى ذيلت النفس وطفئت حرارة تلك الشهوات ، ثم زادوها منعًا حتى ذبلت واسترخت . فكلما منعوها شهوة أتاهم الله على منعها نورا فى القلب ، فقوى القلب ، وضعفت النفس ، وحى القلب بالله جل ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات ، حتى أمتلأ القلب من الأنوار ، وخلت النفس من الشهوات ، فأشرق الصدر بتلك الأنوار ، فجلب على النفس خوفا وخشية وحياء ، واستولى على النفس وقهرها . فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التى أعطيت القلوب بما فيها من المعرفة (٣) .

فالحكيم الترمذى بشفافيته النفسية ، ودقة فهمه للنفس الانسانية كان من أبرز من تعرف إلى سمات الشخصية الانسانية : « النواحى الخلقية ، والعادات ، والميل ، وأساليب السلوك المكتسبة . لارتباط الخلق بأساليب السلوك » (٤) ولقد كانت نظرة الحكيم الترمذى إلى منزلة عداوة النفس تقوم على أن الرذائل عيوب نفسية تحد من تكامل

(١) الحكيم الترمذى الرياضة وادب النفس ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) انظر الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٢ .
(٣) انظر الحكيم الترمذى الرياضة وأدب النفس ص ٥١ .
(٤) الدكتور عامر النجار التصوف النفسى ص ٤١٧ .

السلوك ، وتسيء إلى سمات السالكين . وقد نبه الحكيم إلى أن الأكياس هم الذين يعرفون مكر النفس ، وخدعها ، ومن شأن القائم أن يراقب أحوال النفس فى هذا المكر الذى يعامل به فليقى كل حال وكل شأن بمثلها من الكياسة ، حتى يردعها عن وجهتها التى قصدت إليها [١] .

والنفس حين يحال بينها وبين تحقيق رغباتها ومشتهياتها تسلك إلى تحقيقها كل وسيلة ممكنة . ولو عن طريق التلبيس على صاحبها .

- ☐ فإذا منعت من شهوات المعاصى . لجأت إلى شهوات المباحات .
- ☐ وإذا منعت من شهوات المباحات لجأت إلى شهوات الطاعات .
- ☐ وإذا منعت من شهوات الطاعات لجأت إلى ما فى أنوار العطاء الإلهى . تختلس منها نصيبا تشارك القلب فيه ، فتفسد عليه أمره ، وتنقص عليه تدبيره وهى تلجأ من أجل التوصل إلى ذلك . إلى حيل ماكرة تستدرج بها صاحبها لكى يتهاون فى حراستها [٢] .

ولا يخفى أن شيخنا الحكيم كان عالماً بالنفس ، وفهم أمراضها وخباياها ، عارفا بعللها وهواجسها . ولهذا لم يترك السالكين دون أن يكشف لهم عن أمراض النفس ، وآفاتها . ومن الانصاف أن نذكر أنه من الممكن اعتبار الحكيم الترمذى مؤسساً لعلم النفس الاسلامى . فقد استخدم تأمل الذات فى مجال الشعور استخداماً دقيقا ، كما لم يقنع بما يبدو ظاهرا من النفس . وإنما تعمق فى باطن النفس كما أدرك ظاهرها وظواهرها . ووصل إلى معرفة كوامنها وشهواتها .

وقد جاءت رسالة « مكر النفس » التى وضعها الحكيم الترمذى . تعرض قضايا النفس وخدعها ، حين يحال بينها وبين تحقيق ما ترغب وتشتهى . كما تضع للمريدين فى سلوكهم إلى الله كيفية مواجهة حيل

(١) الحكيم الترمذى مكر النفسى ص ١٠٤ تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة .
(٢) راجع الدكتور عبد الفتاح بركة فى التصوف والاخلاق نصوص ودراسات ص ٩٣

النفس وخداعها . ولأهمية ما جاء عن الحكيم فيما تأتى به النفس . سنتناول ذلك واحدة واحدة .

يقول الحكيم الترمذى عن ما تأتى به النفس المريد :

١ — فإذا أتته — المزيد — من قبل النعمة . ترين سبوغها عليه ، وأن الله قد فعل ذلك به ، وخار له فيه .. لقيها بالكياسة [1] .

فالنفس حين يحال بينها وبين مشتهياتها قد تمكر وتتحايل على السالك بأن ما تم عليه من النعمة واتسع .. علامة علو منزلته . ولاشك أن سبوغ النعمة قد يكون امتحانا واختباراً . وكان لابد السالك من مواجهة هذه الحيلة . ولايكون ذلك إلا بالكياسة التى تسد على النفس كل طريق .

٢ — وإذا أتته من قبل المعونة : أن سعة الدنيا معونة على الدين .. لقيها بالكياسة [2] وتلك كما ترى حيلة أخرى . بل من أشد الحيل دهاء حيث تحاول تصوير سعة الدنيا على أنها معونة على الأخرة وعبادة الله .

٣ — وإذا أتته من قبل طيب النفس بالأحوال الملائمة له . لقيها بأثقال الشكر المقرونة بكل حال تطيب بها نفسه [3] .

وتلك حيلة تأتى للسالكين عندما يمنحهم الله سبحانه وتعالى تنزلاته وعطاياه فتقوم النفس بتزين التمتع بهذه الأحوال . وما على المريد إلا أن يواجه ذلك بأثقال الشكر .

٤ — وإذا أتته من قبل الجاه والقدر والمنزلة .. لقيها بأن الجاه جاه الآخرة والقدر والمنزلة حيث ينزلهم غدا فى تلك العرصة من الأحوال [4] .

---

(١) الحكيم الترمذى المسائل المكنونة ص ١٢٧ .
(٢) الحكيم الترمذى المسائل المكنونة ص ١٢٧ .
(٣) المصدر السابق ص ١٢٨ .
(٤) المصدر السابق ص ١٢٨ .

وتلك حيلة تتحايل بها النفس على من اشتهر من المريدين . فتحاول أن تلهيه بتلك الشهرة ، لتصرفه عن القدر والمنزلة فى الأخرة . وعلى المريد أن يتنبه لمثل هذه الحيل المهلكة فيقابلها .

٥ ــ وإذا أتته من قبل النفس ودوام العافية . لقيها بأحداث الزمان ، وتحول العافية ، حتى يلجأ إلى الله ، ولا يطمئن إلى مادونه ولا يركن .

٦ ــ وإذا أتته من قبل دول دنيوية .. لقيها بأن الدولة دول بين الخلق ومتوارث فإذا تمت هذه الدولة فكأن لم تكن فولى الدولة يداولها بين عباده [1] .

٧ ــ وإذا أتته من قبل جرى الأمور على محابه .. لقيها : بأن المفهوم مستبد .

٨ ــ وإذا أتته من قبل بسر الطاعات وعصمة المعاصى لقيها بخوف الزوال .

٩ ــ وإذا أتته من قبل كثرة أعمال البر وتجنب أعمال البغى فى الظاهر لقيها بأن الأمر ليس بكثرة الأعمال وتجنب السوء .. الشأن فى صحة القلب .

١٠ ــ وإذا أتته من قبل غزارة العلم وكياسة العمل .. لقيها بتأكد الحجة .

١١ ــ وإذا أتته من قبل صدق الأعمال . فيقول : لا أدرى أيقبل منى أو لا .

١٢ ــ وإذا أتته من قبل العطايا .. لقيها بالغرم [2] .

---

(١) وذلك متابعة لقوله تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ سورة آل عمران الأية رقم ٤٠ .

(٢) الحكيم الترمذى المسائل المكنونة ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

فالحكيم الترمذى يرتب مسائل ما يمكن أن تأتى به النفس من مكر وحيل ترتيبا يتدرج مع حال المريد .

ومعنى هذا أن حيل النفس كثيرة ترتبط بالأحوال الدنيوية وغيرها . وكان لابد من التصدى لهذه الحيل وذلك عن طريق الكياسة وبالكياسة تصير القلوب محرزة عن الائتمار بما تأمر النفس ، وتشير إليه . وتصير النفس معزولة عن إمرتها . وعندئذ ــ كما يقول الحكيم الترمذى ــ « يستوى القلب ملكا على سريره ، والروح ترجمانه ، والعقل وزيره . والأمر والنهى للملك . والراعى : الروح ، والمدبر العقل .

وقد كانت النفس من قبل ذلك فى معدنها ملكا على القلب مطاعة فصارت بتوفيق الله للعبد مسلوبة المملكة ، ساقطة المنزلة ، مخيبة مقصاة ، فنجوا من آفاتها وخرجوا من دواهيها براة سالمين »[1] .

ولا يخفى أن الدين أنعموا النظر فى رسالة « مكر النفس » للحكيم الترمذى ، وتابعوا حيل النفس التى ذكرها الحكيم . يجدون أن الذين واجهوا هذه الحيل بالكياسة ، وتصدوا لها بالانتباه والنظر هم أولئك الذين تمكنوا أن يلبسوا النفس ثوب المذلة ، فورثوا بذلك حب الله مولاهم ومليكهم .

وما ورثوا ذلك حتى أوجب الله لهم محبته[2] ويستدل الحكيم الترمذى على ذلك بقوله : « روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حبك الشيء يعمى ويصم »[3] .

فالدنيا ضد الآخرة ، فمن أحب الدنيا أعماه وأصمه عن الآخرة ،

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٣ .
(٢) انظر الحكيم الترمذى منازل العباد من العباد ص ٤٣ .
(٣) الحديث جاء فى منازل العباد من العبادة .

ومن أحب الآخرة أعماه وأصمه عن الدنيا ، والنفس تضاد ربها وتدعو إلى طاعتها . فمن أحب النفس أعماه وأصمه عن الله ، ومن أحب الله أعماه وأصمه عن النفس . فوجدنا هذا ميزان الخلق ، به يوزنون على درجاتهم .. محب النفس آيس عن كشف الغطاء ، والوصول إليه . لأنه عدوه . والمقبل على العدو معرض عن الله ، ومحب الله دافع باله عن النفس ، معرض عنها ، مقبل على الله [1] .

وإذا كان الحكيم الترمذى يجعل من منازل القاصدين إلى الله [منزله عداوة النفس] وينبه السالكين إلى مكائدها وخدعها . فإن المحاسبى يطلب من المريدين أن يعرفوا أنفسهم . « فاعرف نفسك فإنك لم ترد خيراً قط مهما قل إلا وهى تنازعك إلى خلافه ، ولا عرض لك شر قط إلا كانت هى الداعية إليه ، ولا ضيعت خيراً قط إلا لهواها ولا ركبت مكروها قط إلا لمحبتها . فحق عليك حذرها لأنها لا تفتر عن الراحة إلى الدنيا والغفلة عن الآخرة » [2] .

وإذا كان المحاسبى يطلب من المريد أن يعرف نفسه فإن ابن عطاء الله السكندرى يقول للمريد : « إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا » [3] .

وهذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس لأنها مجبولة على الجهل والشره . فشأنها أبداً إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق .

وحظ النفس فى المعصية ظاهر جلى وحظها فى الطاعة باطن خفى . فإذا وجد المريد من نفسه ميلاً وخفة عند بعض الأعمال دون

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٤ .
(٢) المحاسبى الرعاية لحقوق الله ص ٢٦١ .
(٣) ابن عطاء الله شرح الشيخ الرندى جـ ٢ ص ٢٩ .

البعض اتهمها وترك ما مالت إليه وخف عليها ، وعمل بما استثقلته » [1] .

ولا يكتفى ابن عطاء الله السكندرى ببيان هذا الميزان الدقيق الذى يكشف عن النفس فى وضوح فتراه يجعل : « احالة الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس » [2] فإذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة . وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال . وقال إذا تفرغت عملت . فذلك من رعونة نفسه ، والرعونة ضرب من الحماقة . وحماقته من وجوه :

الأول : إيثار الدنيا على الآخرة وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين وهو خلاف ما طلب منه .

والثانى : تسويفه بالعمل إلى أوان فراغه وقد لا يجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض .

والثالث : أن يفرغ منها إلى الذى لا يرضيه من تبدل عزمه وضعف نيته . ثم فيه من دعوة الاستقلال ورؤية الحول والقوة فى جميع الأحوال ما يستحضر فى جنبه جميع هذا [3] .

فالحكيم الترمذى والمحاسبى وابن عطاء الله السكندرى ، يلتقون فى تحليل النفس وفى الغاية من هذا التحليل . حيث أن الغاية : الوقاية من الشر ومن ارتكاب الذنوب ليمضى السالك فى الطريق مستضيئا بنور الله .

---

(١) الشيخ الرندى شرح الشيخ الزندى على الحكم جـ ٢ ص ٢٩ .
(٢) ابن عطاء الله شرح الشيخ الرندى جـ ١ ص ٢١ .
(٣) الرندى شرح الشيخ الرندى على كتاب الحكم جـ ١ ص ٢١ .

ولا يخفى أن فهم الحكيم الترمذى ــ وغيره من علماء السلوك ــ لخطرات النفس الانسانية ، وتنبيه المريدين إلى مكرها وحيلها . ينفى عن التصوف أنه دعوة إلى السلبية والزهد المريض والهروب من قضايا الانسان .

وتربية النفس عن طريق المجاهدة والرياضة والكياسة خطة اصلاحية نافذة . فمخالفة النفس رأس جميع العبادات ، وكمال كل المجاهدات . ولا يجد العبد الطريق إلى الحق إلا بذلك .

المحبة :

إن منزلة المحبة عند الحكيم الترمذى تأتى بعد منزلة عداوة النفس يقول الحكيم فى ذلك : « إن عبادا قطعوا هذه العقبة . فتركوا هذه النفس مزجورة منسية وصارت أرواحهم معلقة بالمحل الأعلى[1] » ..

فمنزلة المحبة جاءت بعد منزلة عداوة النفس فى ترتيب مقصود ، حيث تركت النفس مزجورة منسية ، فأصبحت الأرواح معلقة بالجناب الأسمى ، والمحبة عند الحكيم « إنما سميت محبة لأنها خلصت إلى حبة القلب ، وهو مجتمع العروق فجرت وشربت منها عروقهم حتى رويت[2] » .

فالمحبة ــ كما ترى ــ مأخوذة من الحب . وهو جمع حبة القلب ، وحبة القلب محل اللطيفة وقوامها . لأن إقامتها بها . فسميت المحبة حبا باسم محلها . لأن قرارها فى حبة القلب[3] .

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٥..
(٢) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٥..
(٣) هناك تعريفات أخرى للمحبة حيث يقال :
ــ إن المحبة بالمعنى اللغوى مأخوذه من « الحبة » وهى بذور تقع على الأرض فى الصحراء

والمحبون عند الحكيم صارت أرواحهم معلقة بالمحل الأعلى ، فذاقوا لذيذ العيش هناك . طعم حلاوته أنساهم طلب الأحوال فى الدنيا: من الضيق والسعة ، والعز والذل ، والبؤس والنعمة والحار والبارد .

فهذه الأشياء جارية عليهم فى دار الدنيا من غير اشتغال منهم بطلبها ولا بقوتها . ما وجدوا من ذلك كان بغيتهم . قد انقطعت أطماع نفوسهم عن كلفة هذه الأشياء[1] ..

فمحبة العبد لله سبحانه وتعالى صفة تظهر فى قلب المؤمن المطيع . بمعنى التعظيم والإكبار . ليطلب رضاء المحبوب ، ويصير بلا صبر فى طلب رؤيته وقلقا فى الرغبة فى قربه ، ولا يسكن إلى أحد دونه ، ويعتاد ذكره ، ويتبرأ مما سوى ذكره ، وينقطع عن جميع المألوفات والمستأنسات ، ويعرض عن الأهواء ، ويقبل على سلطان المحبة ، ويطيع حكمه ، ويعرف الحق تبارك وتعالى بنعوت الكمال .

فسموا الحب حبا لأن فيه أصل الحياة كما أن فى الحب أصل النبات .

— ويقولون إنها مأخوذة من « الحب » الذى فيه ماء كثير ويكون قد امتلأ وليس فيه للعيون مساع وقد صار مالكه أيضا وكذلك المحبة حينما تجتمع فى قلب الطالب وتملأ قلبه لا يبقى فى ذلك القلب مكان لغير حديث الحبيب .

— ويقال إن الحب هو تلك الخشبات الأربع المعشقة معاً التى توضع عليها جرة الماء فيسمون الحب حبا بهذا المعنى لأن المحب يتحمل عز الحبيب وذله .

— ويقال إنها مأخوذة من حباب الماء وغليانه عند المطر الشديد وذلك الغليان يكون ماء فى حال المطر العظيم . فاسموا المحبة حبا لأنه غليان القلب عند الاشتياق إلى لقاء المحبوب .

— ويقال إن الحب اسم موضوع لصفاء المودة لأن العرب يسمون صفاء بياض إنسان العين حبة الإنسان كما يقال لصفاء سويداء القلب حبة القلب . فصار هذا محل المحبة وذاك محل الرؤية . « أنظر الهجورى كشف المحجوب جـ٢ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ » .

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٥..

ويذكر الحكيم الترمذى : أنه ليس فى الملكوت أحلى من حب الله ، فإذا وجد العبد حلاوة حب الله . غرقت حلاوة أمور الدنيا فى حلاوة الحب . وتلاشت ، فعندها لا يريد العبد إلا ما يريد ربه . وذلك قول الرسول ﷺ : « حبك الشيء يعمى ويصم[1] » فكلما كسر العبد مشيئة من مشيئاته ، واحتمل أثقال المكاره والغموم . كان ذلك أكثر لمشيئة نفسه وأضعف ، فكلما انتقص من هاهنا ازداد من حب الله حتى يذهب هذا كله ويبقى ذلك كله مستوليا على القلب[2] .

فمحبة العبد لله عز وجل : الغاية القصوى للسالكين والسائرين فى الطريق ولا يعبر عنها حقيقة إلا من ذاقها . ومن ذاقها استولى عليه من الذهول على ما هو فيه أمر لا يمكنه معه العبارة[3] .

والسالكون الذين أقاموا فى منزلة المحبة : « مالهم أيام الحياة من نهمة إلا مناجاته .. ومالهم فى الاخرة نهمة إلا عفوه .. ومالهم من الجنة نهمة إلا زيادته .. ومالهم من الزيادة نهمة إلا ملاقاته والنظر إليه[4] » .

ومما يجدر التنبيه إليه : أنه لا يجوز أن تكون محبة العبد للحق من جنس محبة الخلق لبعضهم البعض ، لأن هذه ميل إلى الإحاطة بالمحبوب وادراكه وهذا حكم صفة الإجسام . « ومحبو الحق تعالى مستهلكون فى قربه لا طالبون لكيفيته . لأن الطالب قائم بنفسه فى المحبة ، والمستهلك قائم بالمحبوب وأصدق الناس فى معترك المحبة مستهلكون ومقهورون[5] » ولذلك يقول الحكيم « وأما ذكر المنزلة

---

(١) الحديث وقد أورده الحكيم الترمذى فى المسائل المكنونة ص ٩٣ فى باب مسألة « حب الله » .

(٢) الحكيم الترمذى المسائل المكنونة ص ٩٣ ..

(٣) ابن الدباغ مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب ص ٢١ ..

(٤) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٥..

(٥) الهجريرى كشف المحجوب جـ ٢ ص ٥٩١ ..

الرابعة . فهم أهل المحبة والقربة وهو قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله [1] ﴾ واتقوا الله فى ترك الذنوب وابتغوا القربة فى مجاهدة الهوى . لأن مجاهدة الهوى تطهير . وكلما تطهروا ازدادوا قربا [2] » فمجاهدة الهوى تطهير . وهؤلاء لما تطهروا من الهوى والميلان عن الله استوجبوا ـــ عند الحكيم محبة الله ، فأورثهم حبة [3] » .

ومحبة الله سبحانه وتعالى للإنسان عند الحكيم الترمذى :

١ ـــ إما أن تكون دون الاشارة إلى سبب استحق به العبد هذه المحبة يقول الحكيم الترمذى : « فالحب سر الله تعالى فى العباد ، يفتح لهم من ذلك على أقدارهم بمشيئته بما سبق لهم من الأقدار منه [4] » ويذكر الحكيم أنك إذا أحببت أن تعرف الذين أحبهم الله فانظر إلى خصالهم التى وصفهم الله تعالى بها فقال تعالى : ﴿ يأيها الذين أمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه [5] ﴾ فبدأ بذكر محبته لهم ، ثم ثنى بحبهم إياه ، ليعلم أن من حبه اياهم نالوا حبه ، ثم وصف حالهم فقال : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » أى ينكسرون عند كل حق ، ويخضعون تواضعا لله ، يذلون عند المؤمنين ومعاملتهم وكذلك عند كل حق وباطل ، فهم أذلة أعزة ، يذلون لربهم عند حقه ، ويعزون لربهم عند الباطل . ثم قال : « يجاهدون فى سبيل الله » يجاهدون أهواءهم فى العبودية ، '' ولا يخافون لومه لائم ''

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٣٥ .
(٢) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٦٧..
(٣) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٦٨..
(٤) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ١٠٣..
(٥) سورة المائدة الآية رقم ٥٤ ..

تركوا النفس مطروحة فى ناحية ، منسية لا يبالون بها بالة من طلب جاه أو قدر أو منزلة فى قلوب الخلق[1] » .

فالحكيم الترمذى فى عرضه لمحبة الله للإنسان دون الاشارة إلى سبب استحق به العبد هذه المحبة يبين لنا أن من حب الله للسالكين نالوا حبة . ويؤكد هذا المعنى فى موضع أخر فيقول : « وأما الحب فإنهم نالوا حبهم من حبه لهم[2] » وهؤلاء الذين أحبهم الله تعرفهم من خصالهم التى بينتها الآية الكريمة :

☐ أذلة على المؤمنين : يذلون لربهم عند حقه .
☐ أعزة على الكافرين : يعزون لربهم عند الباطل .
☐ يجاهدون فى سبيل الله: اهواءهم فى العبودية .
☐ ولا يخافون لومة لائم: فتركوا النفس مطروحة .

٢ ــ وإما أن تكون محبة الله تعالى للإنسان قد نالها لاتباعه الرسول ﷺ . وقد استدل الحكيم الترمذى على ذلك بقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله [3] ﴾ ... يقول الحكيم الترمذى : فاستخرج سرائر أهل صدق محبته باتباعهم محمدا ﷺ فى جميع الأمر والنهى وفى جميع الحالات التى دلهم عليها[4] فجعل اتباع محمد ﷺ علما لحبة[5] ..

فالحكيم الترمذى فى منزلة « المحبة » يشير إلى أن حب الإنسان لله سبحانه وتعالى ينبثق عن حب الله عز وجل للإنسان ،

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٦٨ ، ٦٩ ..
(٢) الحكيم الترمذى الأمثال من الكتاب والسنة ص ١٠٤..
(٣) سورة المائدة الآية رقم ٥٤ ..
(٤) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٦٨..
(٥) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٧٠..

وحب الله عز وجل للإنسان أسبق من حب الإنسان لله سبحانه وتعالى وحب الله تعالى للإنسان سر من الله سبق فى مشيئته وتقديره .

وهناك كثير من الأحاديث النبوية يأتى بها الحكيم الترمذى فى الموضوع منها ما ذكره فى كتابه « الأمثال من الكتاب والسنة[1] » حيث قال : روى عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى أنه قال : « ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء فرائضى ، وإنه ليتقرب إلى بعد ذلك بالنوافل حتى أحبه ، وما يتقرب إلىَّ عبد بمثل النصح . فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله ، وفؤاده ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يعقل[2] » .. ومما يؤيده محبة الله للعبد وأثرها فى محبة الخلق ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل . فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه

(١) الحكيم الترمذى الأمثال من الكتاب والسنة ص ١٣٣..
(٢) — أخرجه البخارى باب التواضع جـ ٨ ص ١٠٥ ولفظ البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .. قال ابن حجر فى فتح البارى للحديث طرق أخرى يدل مجموعها على أن له أصلا منها عن عائشة أخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى الدنيا وابو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد من طريق عبد الواحد بن ميمون عن عروة عنها .. وذكره ابن حبان وابن عدى أنه تفرد به .

— ابن حجر — (فتح البارى) جـ ١ ص ٣٤١ ، ٣٤٢ المطبعة السلفية بيروت .

فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض[1] » .

ومن المؤكد عند الحكيم الترمذى أن :

- ☐ المحبة جرت من الله تبارك اسمه إلى عباده فى اللطف . فوصل إلى جميع خلقه فأحبوه وفرحوا به . وفرحوا به وبعبادته لمحبته واللطيف رفيق . فلما جاءت الشهوات مالت بهم عن الله هكذا يمينا وشمالاً . فقالوا ربنا الله ثم لم يستقيموا !

- ☐ ثم خرجت محبة أخرى فى التوحيد إلى أهل المنة والاجتباء فأحبوه وفرحوا به والتوحيد ثخين ركين . فلما جاءت الشهوات وتزين الشيطان ليميل بهم لم يقدورا على ذلك . « قالوا ربنا الله ثم استقاموا[2] » فلم يشركوا ..

- ☐ ثم خرجت محبة ثالثة إلى أهل الصفوة فشبت قلوبهم ، وغلت المحبة غليان المرجل فأحرقت حب الشهوات ، ووفدت بالقلب إلى العزيز

---

(١) ــ أخرجه البخارى فى كتاب « بدء الخلق » باب « ذكر الملائكة » جـ ٤ ص ١١١ ..

وقد رواه البخارى أيضا فى كتاب الأدب . باب المقت من الله جـ ٨ ص ١٤ وأخرجه البخارى أيضا فى كتاب التوحيد باب « كلام الرب مع جبريل ، ونداء الملائكة » جـ ٩ ص ١٤٢ .

ــ وأخرجه الإمام مالك رحمه الله فى الموطأ ص ٢٠٩ هامش الجزء الثانى مصابيح السنة باب « ما جاء فى المتحابين فى الله » .

ــ وأخرجه الترمذى فى سننه باب سورة مريم جـ ٢ ص ١٩٨ وقال أبو عيسى الترمذى حديث حسن صحيح .

ــ أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده جـ ٤ ص ٢٠٣٠ ط البابى الحلبى .

(٢) سورة الأحقاف الآية رقم ١٣ .

الجواد ، فثبت قلوبهم[1] . فالله سبحانه وتعالى أبرز للعباد محبة ورأفة ورحمة ، ووضعها عنده ليجريها إلى العباد فمن وحده ، وأقبل إليه وأسلم وجهه لله صدقا أجرى إليه من هذه الثلاث بقدر ما وفى من هذه الثلاث[2] .

ومن هنا كانت منزلة المحبة من منازل السائرين عند الحكيم الترمذى يصل إليها السالك ويتدرج مصحوبا بنشاط متواصل متتابع نتيجة استعداد يجعل السالك يقوم بسلوك معين إزاء هدفه وهو الوصول إلى الله .

قطع الهوى :

إن منزلة قطع الهوى — عند الحكيم الترمذى — تأتى مباشرة بعد منزلة « المحبة » التى عرضنا لها فى المنزلة الرابعة ونحن نتابع الحكيم الترمذى فى مراحل السلوك .

يقول الحكيم الترمذى : إن لله عباداً قطعوا هذه العقبة ، فبقيت لهم عقبة الهوى . كلما هزموها وقهروها فى منزلة من هذه المنازل وجدوها حية . فأمعنوا فى إتعابها طمعاً لإماتة الهوى وفقد رؤية النفوس فى الأشياء[3] .

فالحكيم — كما نرى — يشير إلى أولئك السالكين الذين قطعوا منزلة « المحبة » ووصلوا إلى درجاتها . بأن عليهم لكى يتمكنوا من قطع مراحل السفر أن يبادروا إلى قطع « عقبة الهوى » .

وإذا أردنا أن نعرف ماهية الهوى عند الحكيم الترمذى . فعلينا أن نعود إلى الحكيم الترمذى . وإذا عدنا إليه نجد قائلا يقول له : ما الهوى ؟

---

(١) الحكيم الترمذى علم الأولياء ص ١٦٢..
(٢) الحكيم الترمذى المسائل المكنونة ص ١٢٣ ..
(٣) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٦ ..

فيقول الحكيم الهوى : « جوهرة النفس لأن أدم عليه السلام خلق من تراب . فكان الهوى هوعنصره الذى فيه جوهرته الترابية فكانت تلك الترابية متشعبة فى النفس وهو صفوة غذاء الأم لأن التراب مظلم . وأمك ربتك من اللبن ومما أخرجت الأرض فإذا خرج الروح منك صار وجهك وجميع جسدك كأنه ذر عليه التراب لأنه لما زال الروح تغير الجسد إلى جنسيته الترابية . فقد علم شهوات الأرض ولذاتها وعرفها فيها بذلك العنصر المنظلم المتشعب . هناك له ميلان : يهوى إلى جنسه ، فسمى هوى لأنه تهوى به النفس . والنفس تهوى بالقلب والقلب يهوى بالاركان إلى نعيم الأرض لأنه من جنسه واليه يحن وله يألف فهذه النفس مضطربه إذا حملت عليها أمر الله تعالى[1] » « والهوى هايجه من النار ، ومروها بالشهوات التى حفت بالنار . فتحمل الهوى من تلك الشهوات زينتها وأفراحها ولذاتها ونعيمها إلى جوف هذا العبد حتى تؤدى إلى نفسه . فإذا احتملت النفس صار مركبها الهوى ، وعلى مقدمته الشهوة قال : ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى[2] ﴾ فركوب الهوى إنما تركبه النفس فإذا ركبته النفس ركض بها إلى المكان الذى اهتاج منه وهو نفس جهنم[3] » فالهوى يدعو الإنسان إلى قضاء الشهوات ، ويميل به إلى اللذة والمتعة ويذهب بصاحبه إلى إدعاء الربوبية ومن هنا ادعى فرعون الربوبية حتى يكون نافذ القول فى شهواته ومناه ، جائز الأمر . دعاه ذلك إلى أن يقول : « أنا ربكم الأعلى[4] » هذه ثمرته فالهوى يهوى بك إلى قضاء الشهوات ، ودرك ما هو من جنسه فاحذروه فإن الصغيرة الضعيفة منه تقوى حتى تصير كبيرة قوية ، ترمى بك فى

---

(١) الحكيم الترمذى أسرار مجاهدة النفس ص ١٣١ ، ١٣..
(٢) سورة النازعات الآية رقم ٤٠ ، ٤١..
(٣)الحكيم الترمذى « الفروق ومنع الترادف ص ٥٧ » .
(٤) سورة النازعات الآية رقم ٢٤..

أودية المهالك[1] » .

ولعلنا نفهم من كلام الحكيم الترمذى أن الأهواء تقوم على قسمين :

☐ الأول : هوى اللذة والشهوة .

☐ والثانى : هو هوى السلطان والإدعاء .

والسالك فى سيره إلى الله رب العالمين فى المراحل السابقة التى عرفناها من المنازل ، التى عرضنا لها عند الحكيم الترمذى . كان يسير اقتدارا ورجولة ومعتدا بنفسه ، تحفه المنة الإلهية . فالتوبة والزهد وعداوة النفس والمحبة وسائل تحتاج من السالك إلى عزم وارداة وتصميم . ولكن الإنسان السالك لا يصل إلى الله بنفسه أو بعمله أو بحبه أو مجاهدته وإنما يصل إلى الله بالله .

ولهذا كان لابد أن يتجرد السالك عن نفسه ، ليمضى قدما منخلعاً عن فرديته . فيرى السير إلى الله إنما يكون به وليس بشىء سواه . فيعمل على التخلص ما بقى فى نفسه من الهوى .

وذلك أن يرى أن ما وصل إليه من منزلة ما كان بجهده . وإنما يرى هذا السالك وغيره من السالكين « أنهم ملوا الحياة وبرموا النفوس وآسوا وتحيروا وصرخوا إلى الله من صدق القلوب باذلين له مجهودهم ، منكسرين مفتقرين إليه ، قد تعروا من جميع الحول والقوة . فنظر الله إليهم بعين الرحمة ولطف بهم ، وكشف عن قلوبهم الغطاء فتعلقت قلوبهم بالحجب الربانية فغذاهم برحمته ، فهى تسبح بهم فى بحور من الثواب ، لا منتهى لهم عنده ، ولا مخرج لهم منها فقلوبهم كالملجم عرقا ، قد حجب أبصارهم من النظر إلى أهوائهم فبقيت أهواؤهم معطلة

(١) الحكيم الترمذى أسرار مجاهدة النفس ص ١٣٤..

عنهم ، فصفت قلوبهم لخالقهم . قد حيل بين قلوبهم وبين أهوائهم فالهوى فيهم محبوس فى وثاق[1] » ..

ولقد سئل الجنيد رضى الله عنه : ماالوصل ؟ فقال : « ترك ارتكاب الهوى » فمن يريد أن يكرم بوصلة الحق ، يجب أن يخالف هوى الجسد ، لأن العبد لا يقوم بعبادة أبداً أعظم من مخالفة الهوى إذ أن حفر الجبل بالظفر ايسر على ابن أدم من مخالفة النفس والهوى[2] .

فالحكيم الترمذى والإمام الجنيد يلتقيان فى أن الوصل ترك ارتكاب الهوى ومن وصل عند الحكيم وصل باب الملك قلبه يقرع باب الملك بالتضرع والاستكانة فيخرج عليه من عطاياه وفؤائده[3] .

ومما يدرك بوضوح أن الحكيم الترمذى يستدل على منزلة قطع الهوى والتطهير منه [4] بقوله تعالى : ﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى [5] ﴾ يقول الحكيم — أى تطهر من الهوى . فهذا مؤمن لا يخلط الفاسدات بالصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن . فوصفه فى أول الآية بالإيمان ثم ذكر الصالحات . وهو الذى لا يشوبه شىء[6] .

ويستدل الحكيم كذلك بقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى [7] ﴾

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٦..
(٢) الهجويرى كشف المحجوب جـ٢ ص ٤٤٠..
(٣) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٧..
(٤) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٧٦..
(٥) سورة طه الآية ٧٥ ، ٧٦..
(٦) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٧٦..
(٧) سورة الأعلى الآية رقم ١٤..

أى تطهـر . فالطهارة من كل شىء يباعده منه ، أو يحجبه عنه . ثم قال عز وجل : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى[1] ﴾ فمعرفته باسمه دعاه إلى التصلية له . وهو الوقوف بين يديه فى نوائب أموره فأفلح هذا العبد أى نجا بالتطهير من الهوى ، وخلص إلى قرب ربه[2] .

فإذا فطم السالك نفسه عن طاعة الهوى . حتى صار له عادة ألا يطيع الهوى فى شىء من الأشياء وإن ابيح له ذلك الشىء استنار قلبه باليقين وهو نور مشرق غى الصدر[3] .

الخشية :

إذا كان طريق السالك فى منزلة « قطع الهوى والتطهير منه » هو الخضوع والخشوع والتذلل ، والوقوف بالباب ليديم القرع ، والتضرع إلى الله تعالى . فإن المنزلة السادسة « منزلة الخشية » هى منزلة كشف الحجب الربانية يقول الحكيم الترمذى : « إن لله عبادًا قطعوا هذه العقبة « منزلة قطع الهوى » صارخين إلى الله مستغيثين به ، فنظر الله إليهم بعين اللطف ، فكشف إليهم عن الحجب الربانية حتى وصلت قلوبهم إليه معرفته »[4] . وحين وصلت القلوب وعرفت كانت الخشية : حيث وقع السالكون فى فضاء عظيم ، وسعة بحار يسبحون فيها ، ولا يجدون لها منتهى ، متحيرين ، ومنقبضين كالمجتشمين والمتوحشين لأنهم لما خلصوا إلى ربهم التفتوا بما فى أهوائهم فى الحياة ، فرأوا نفوسهم الدنية فى ذلك المحل العظيم ، فتحيروا واستحيوا من ربهم ، واحتشموا من الدنيا ، واستوحشوا من الحال التى رأوا من إقبال الله عليهم ، وعظيم صنعه

(١) سورة الأعلى رقم ١٥..

(٢) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٧٧..

(٣) الحكيم الترمذى اسرار مجاهده النفس ص ٨٠..

(٤) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٤٨ .

بهم ، وهربهم منه أيام الحياة ، فأقعدهم الحال عن جميع أمورهم . وهابوه في ذلك المقام هيبة أيبست طراوة نفوسهم ، فنشفت طراوتها »[1] ولعله يفهم مما ذكره الحكيم الترمذى من أحوال أهل الخشية وصفاتهم أن الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه .. ويذكر الجرجانى فى التعريفات : أن الخشية تألم القلب بسبب توقع مكروه فى المستقبل يكون تارة بكثرة الجناية من العبد ، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته[2] . فالخشية عند الحكيم الترمذى لا تكون إلا من العلم بالله ، والعلم بالله يؤديك إلى السلطان ، وكما يؤديك إلى السلطان يؤديك إلى الرحمة ، ويؤديك إلى الحلال . وكما يؤديك إلى الحلال يؤديك إلى الجمال ، ويؤديك إلى العز والكبرياء ، وكما يؤديك إلى الكبرياء يؤديك إلى الكرم ، ويؤديك إلى الخطر العظيم من مكره وإلى هول المشيئة . وكما يؤديك إلى ذلك يؤديك إلى الجود ، ويؤديك إلى الهيبة . وكما يؤويك إليها يؤديك إلى المحبة والأنس »[3] . وبعد أن يذكر الحكيم ما جاء عن العلم بالله الذى لا تكون الخشية إلا به نجده يستدل على ما ذكر بقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[4] يقول الحكيم : ثم قال على أثره ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾[5] يعلمك : أن العلماء بالله يخشون الله لعلمهم بالله أنه جليل ، فيخشون جلاله ، ثم يمازج الخشية علمهم بالله أنه عزيز غفور . وذلك أن العزيز يأنف أن يخيب من يأمله أو يرد سائله أو يؤيس راجيه ، والعزيز يعطى ولا يبالى من العطية[6] .

---

(١) الحكيم الترمذى منازل العباد من العباد ص ٤٨ .
(٢) الجرجانى التعريفات ص ٩٨ .
(٣) الحكيم الترمذى المسائل المكنونة ص ٥٣ .
(٤) سورة فاطر الآية رقم ٢٨ .
(٥) سورة فاطر الآية رقم ٢٨ .
(٦) الحكيم الترمذى المسائل المكنونة ص ٥٣ .

فالخشية من الله سبحانه وتعالى لا تكون إلا من غزارة العلم بالله ، وأعلم الخلق بالله أخشاهم لله . فعلامة العلم بالله عند شيخنا الحكيم : خشيته وعلامة خشيته : طاعته [١] .

وإذا كان الأمر ـــ كما ذكرنا ـــ فإن خشية الخلق لا تكون إلا من الجهل بالله عز وجل وسوء الظن به . وهذا ـــ كما يذكر الحكيم ـــ لمن خشى الخلق عن غفلة عن الله . وأما من خشى الخلق مخافة أن يسلطه الله عليه ، فهذه خشية راجعة إلى خشية الله . فهذا محمود [٢] .

يقول الحكيم الترمذى مستدلاً على ما ذكر : ورسولنا محمد ﷺ عوتب فى الخشية . فقال : ﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ [٣] . حيث أخفى فى نفسه حاجته إلى زينب وقال لزوجها ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ [٤] وأبداها الله بأن أعلمه أن زينب ستكون من نسائه . وكان يقال لزيد ابن محمد . لأن رسول الله ﷺ تبناه . فكره أن يقال : تزوج امرأة ابنه حتى نزلت : ﴿ ادعوهم لابائهم هو أقسط عند الله ﴾ [٥] . ونزلت ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ [٦] .

فالله سبحانه وتعالى يعاتب رسولنا محمد ﷺ حيث قال لزيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه بهداية الاسلام . وأنعم عليه محمد ﷺ بالتربية والعتق : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش ، واتق الله فيها ، واصبر

---

(١) الحكيم الترمذى الفروق ومنع الترادف ص ٩٢ مخطوط باريس .
(٢) الحكيم الترمذى الفروق ومنع الترادف ص ٩٢ .
(٣) سورة الأحزاب الآية رقم ٣٧ .
(٤) سورة الأحزاب الآية رقم ٣٧ .
(٥) سورة الأحزاب الآية رقم ٥ .
(٦) سورة الأحزاب الآية رقم ٣٧ .

على معاشرتها . وأخفى فى نفسه ما الله مظهره من أنه سيطلقها وأن الرسول سيتزوجها ، وخاف أن يعيره الناس . والله الجدير بأن يخافه ولو كان فى ذلك مشقة عليه فلما قضى زيد حاجته وطلقها تخلصا من ضيق الحياة معها زوجه الله منها . ليكون قدوة فى إبطال هذه العادة المرذولة ، ولايستحرج المسلمون بعد ذلك من التزوج بزوجات من كانوا يتبنونهم بعد طلاقهن وكان أمر الله الذى يريده واقعا لا محالة » [1] .

و الحكيم الترمذى لا يكتفى بالاستشهاد بأيات القرآن الكريم وما جاء فى معاتبة النبى ﷺ . فنراه [2] يقول : وروى فى الحديث عن رسول الله ﷺ : « أنه يقال للعبد يوم القيامة ما منعك إذا رأيت المنكر أن لا تغيره ، قال : خشيت الناس . قال : فإياى كنت أحق أن تخشى » [3] ويقول النبى ﷺ : « إنى اتقاكم لله وأشدكم لـه خشية » [4] .

(١) أنظر المنتخب بن التفسير ص ٦٢٨ .

(٢) الحكيم الترمذى الفروق ومنع الترادف ص ٩٢ .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده جـ ٣ ص ٤٨ عن أبى سعيد الخدرى ط بيروت ١٩٧٨ م .

وأخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جـ ٢ ص ١٣٢٧ عن أبى سعيد . فى الزوائد اسناده صحيح رجاله ثقات .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب باب من لم يواجه الناس بالعتاب جـ ١٢ ص ٥٥٣ عن عائشة ط المطبعة السلفية .

أخرجه مسلم فى صحيحة كتاب الفضائل باب (علمه صلى الله عليه وسلم بالله تعالى وشدة خشيته) جـ ٤ ص ١٨٢٩ عن عائشة .

أخرجه البخارى فى صحيحة كتاب النكاح باب الترغيب فى النكاح جـ ٩ ص ٤٠١ عن أنس بن مالك .

وأخرجه مسلم فى صحيحة كتاب الصيام باب النهى عن الوصال فى الصوم جـ ٢ ص ٧٧٩ وباب صحة صوم من طلع على الفجر وهو جنب جـ ٢ ص ٧٨١ .

وأخرجه أبو داود فى سننه كتاب الصيام باب فى من اصبح جنبا فى شهر رمضان جـ ١ ص ٥٥٧ عن عائشة مصطفى الحلبى .

واخرجه الامام مالك فى الموطأ باب فى جاء فى صيام من يصبح جنبا فى رمضان

وإذا كان قد سبق لنا أن قلنا : أن الخشية عند الحكيم الترمذى هى خوف يشوبه تعظيم . فإننا نجد أن الحكيم الترمذى يجمع ذلك الخوف والتعظيم فى القشعريرة يقول : « وتحقيق ذلك فى كتاب الله عز وجل من قوله ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ (١) فاحتراق الجلود تقشعر من المثانى يثنى فيها الوعيد مرة بعد مرة فالاقشعريرة من الوعيد ، ومن الخشية منه . ثم قال : ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (٢) فإذا ذكره بعد الوعيد اطمأن إليه ولان جلده وقلبه لأنه قد لها بذكره عن نفسه (٣) .

وإذا كانت الخشية عند الحكيم الترمذى لا تكون إلا من العلم بالله فإن ابن عطاء الله السكندرى « خير العلم عنده ما كانت الخشية معه » (٤) فخير العلوم ما يلزم وجود الخشية لله تعالى معه ، لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه ولا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة (٥) . وابن عطاء الله السكندرى يزيد الأمر وضوحاً مبينا ما هو على الأنسان وما هو له فيقول : « العلم إن قارنته الخشية فلك والا فعليك » (٦) . فالعلم الذى تلازمه الخشية لك لأنك تنتفع به فى دنياك وأخرتك . والعلم الذى لا خشية فيه عليك لانك تستضربه فيهما وهذا هوالفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا من حيث أن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة . وعلماء الدنيا موسومون

جـ ١ ص ٢٨٩ عن عائشة ط عيسى الحلبى .
وأخرجه أحمد بن حنبل فى سنده جـ ٦ ص ٦٧ ط بيروت عن عائشة .
(١) سورة الزمر الأية رقم ٢٣ .
(٢) سورة الزمر الأية رقم ٢٣ .
(٣) الحكيم الترمذى منازل العباد من العبادة ص ٨٠ .
(٤) ابن عطاء السكندى شرح الشيخ محمد بن أبراهيم النفرى جـ ٢ ص ٥٠ .
(٥) التقرى الرندى شرح الشيخ النفرى جـ ٢ ص ٥١ .
(٦) ابن عطاء السكندى شرح الشيخ النفرى جـ ٢ ص ٥٢ .

بالأمن والعزة »[1] . وما يفهم من كلام الحكيم ورؤية ابن عطاء الله السكندرى. أن الحكيم الترمذى يجعل العلم أصلاً أصيلا فى السلوك ولذلك يقول للسالك الذى سأله عن كيفية السلوك « فأول ما يجب عليك طلب العلم »[2] . ولذلك كانت الخشية عنده لا تكون إلا من العلم بالله . أما ابن عطاء الله السكندرى فيجعل العلم النافع أصلاً لكن لا يكون نافعا إلا إذا قارنته الخشية ، وكانت معه .

* * *

(١) التقرى الرندى شرح الشيخ النفرى ص ٥٢ .

(٢) الحكيم الترمذى كيفية السلوك إلى لرب العالمية ص ١٤٧ مخطوط .

كتـــاب

مـــنازل العـــباد من العـــبادة

حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا ، عونك اللهم وحدك ، والصلاة على نبيك محمد سيد المرسلين ، وعلى آله أجمعين الحمد لله رب العلمين .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فإنكم سألتمونى[1] عن وصف منازل العباد من هذا الدين ، وأن أذكر لكم على كل منزلة منها من طريق الكتاب المنزل ، والخبر المأثور ، ما يكون شاهدا على وصفى ، ولاحول قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأنا فاعل ذلك إن شاء الله .

المنزلة الأولى : منزلة التوبة :

إن لله عباداً نظر إليهم بالرحمة[2] ، فمن عليهم بالتوبة[3] ، وفتح أبصار قلوبهم ، فتشمل قبح المعاصى فى صدورهم ، حتى نظروا إلى سوء ما عاملوا الله به ، وانكشفت لهم العاقبة ، عن مسكن العاصين .

فبادروا بالنزوع عنها ، فقوى الله عزمهم ، وأيدهم بتوفيقه ، فكلما نزعوا عن معصية صقلوا قلوبهم عن نكتة تلك المعصية وسوداها .

---

(١) يفهم من عبارة « سألتمونى » أن السؤال كان موجها إليه من جماعة ، قد يكونون من المريدين الذين تتلمذوا عليه وقد يكونون أصدقاء يتباحثون معه ، وقد يكونون مناظرين يسألونه الدليل على ما يدعو إليه . وقد يكون ذلك عادة ألفها العلماء فى بحوثهم وعرض أفكارهم على الناس . وقد يكون ذلك زيادة فى شد الانتباه إلى ما يقال .

(٢) الرحمة من الله سبحانه وتعالى : إنعام وافضال « بصائر ذوى التميز فى لطائف الكتاب العزيز » جـ ٣ ص ٥٣ .

(٣) التوبة من أفضل مقامات السالكين لأنها أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقها العبد أبدا ، ولا يزال فيها إلى الممات وان ارتحل السالك منها إلى منزل آخر ارتحل به ونزل به ، فهى بداية العبد ونهايته . وحاجته إليها فى النهاية ضرورية . كما أن حاجتة إليها فى البداية كذلك « البصائر جـ ٢ ص ٣٠٤ » .

كما قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا أذنب نكتت فى قلبه نكته سوداء ، فإذا تاب ونزع صقل قلبه[1] » حتى إذا استحكموا باب التوبة بنزوعهم عن جميع المعاصى ، التى كانوا عليها مقيمين ، وبتدارك ما سلف منهم فى الأيام الخالية ، وتتبعها بالاصلاح على استفراغ مجهودهم ، وحسب طاقتهم .

برد المظالم ، وتحللها من أربابها ، وتلافى ما فرطوا فيه ، من المفروضات بالإعادة والإتمام لها حتى إذا بلغوا إلى المبلغ الذى لا يحيك فى صدورهم شيء من الماضى ولا من الذى هم عليه مقيمون من أن يكونوا قد خرجوا إلى الله ، من حقوقه التى أوجب عليهم ، وألزمهم حسب وسعهم .

فعندها استوجبوا اسم التائبين . واسم المتقين[2] ، وهو أدنى منازل المريدين الله ، والسائرين إليه ، فإذا قلوبهم مصغية إلى الآمر والزاجر على على قلوبهم كلما أمروا أئتمررا ، وكلما زجروا انزجروا .

وهو واعظ الله فى قلب كل مؤمن ، بهذا جاءنا الخبر عن رسول الله ﷺ ، وهو الشاهد الصدق من الله ، ألا تسمع إلى ما أوماً إليه رسول

---

(١) اخرجة بن ماجه فى سننه كتاب الزهد باب ذكر الذنوب جـ ٢ ص ١٤١٨ عن ابى هريرة حديث رقم ٤٢٤٤ ط عيسى البابى الحلبى .
وأخرجه الامام أحمد فى المسند عن ابى هريرة رضى الله جـ ٢ ص ٢٩٧ ط بيروت .
وأخرجه الترمذى فى السنن نفسير سورة المطففين وقال : حديث حسن صحيح جـ ٥ ص ٤٣٤ ط الحلبى .
وأخرجه النسائى فى السنن الكبرى فى التفسير وفى عمل اليوم والليلة .
(٢) من التقوى والمتقى : من جعل بينه وبين المعاصى وقاية تحول بينه وبينها ، من قوة عزمه على تركها ، وتوطين قلبه على ذلك فلذلك قيل له : متقى .

الله ﷺ حيث أتاه السائل عن البر والإثم ، فقال : « البر ما أطمأن إليه القلب والإثم ما حاك فى صدرك وتردد »[1] فهؤلاء التائبون تطهروا من الذنوب فاستوجبوا المحبة . « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »[2] .

فأما باب منزلة التوبة ففى قوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا إيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾[3] . فالفلاح النجاة[4] . فوعد الله على

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب « البر والصلة والآداب » تفسير البر والاثم ٤/ ١٠٩٨٠ حديث رقم ١٥

— وأخرجه الترمذى فى كتاب « الزهد » ٥٢ باب « ما جاء فى البر والاثم ٤ / ٥٩٧ حديث رقم ٢٣٨٩ « وقال هذا حديث حسن صحيح .

— وأخرجه الدرامى فى كتاب « الرقائق » ٧٣ باب فى البر والاثم ٢ / ٣٠ حديث رقم ٢٧٩٢ .

— واخرجه الامام أحمد فى المسند ٤ / ٩١٨٢ .

— والحاكم فى المستدر ك فى كتاب « البيوع » باب « البر حسن الخلق والاثم ما حاك فى صدرك ٢ / ١٤ » وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .. وعلق عليه الذهبى بقوله : صحيح .

— وأخرجه البيهقى فى [السنن الكبرى] ١٠ / ١٩٢ فى كتاب الشهادات باب « مكارم الاخلاق » وقال : أخرجه مسلم فى الصحيح .

— وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد ص ١١١ حديث رقم ٢٩٥ باب حسن الخلق إذا فقهوا .

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٢٢ .

(٣) سورة النور . الآية رقم ٣١ .

(٤)والفلاح : الظفر وإدراك المنية . وذلك ضربان : دينى ودنيوى : فالدنيوى : الظفر بالسعادات التى تطيب بها حياة الدنيا . والأخروى : اربعة أشياء : بكاء بلافناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل .

التوبة الفلاح ، وحاجة المؤمن إلى ربه النجاح ، وأما قولى فى أول « هذا » نظر الله إليهم بالرحمة فمن عليهم بالتوبة ، وفتح أبصار قلوبهم فهو قوله : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم[1] ﴾ فوعد المغفرة ، والرحمة ، وأما وصفى أحكام التوبة وما أيدهم الله ، ووفقهم ففى قوله ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم . وظنوا أن لا ملجأ من الله الا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ، يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقون[2] ﴾ وموجود هذه المنازل السبع[3] فى آية البيع قوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة[4] ﴾ .

علم أن من عبيده من نفسه وملك يمينه نصب عينه ، قد سقط عن مولاه قلبه ، وأخذت نفسه ودنياه بمجامع قلبه ، فلا يقيم أمره حتى يرشيه ، فإنها انما تترك أمر الله وتضيعه من أجل إقبالها على لذتها وشهوتها وكراهة مفارقتها عند وجوب أمر الله فأرشاها بأن نصب لها الجنة ثمناً وعوضاً عن ترك هواها كى يفهم تفاوت ما بين اللذتين والشهوتين .

فينقاد لأمر الله رجاء نيل تلك اللذة الباقية والشهوة الدائمة ،

---

(١) سورة الانعام الآية رقم ٥٤ .
(٢) سورة التوبة . الآيتان ١١٨ ، ١١٩ .
(٣) إشارة إلى أن هناك منازل أخرى غير منزلة التوبة .
(٤) سورة التوبة الآية رقم ١١١ .

فاشترى منهم نفوسهم وأموالهم بالبيعة [1] ، ثم قال : ﴿ من أوفى بعهده من الله ﴾ [2] يؤكده عنده ويشدده حتى يتقوا ويطمئنوا .

لأنه اقتضاهم النفوس المبيعة ، وفى الثمن قليل مدة فذكر وفاءه يؤكده عندهم ، ثم قال ﴿ فاستبشروا ببيعكم ﴾ الذى يطيب به نفوسهم حتى لا يجدوا أسفاً على ترك شهوة دنية ، ومنية ردية ، باعوها من ربهم بالجنة العالية الغالية لضعف النفوس وغلبة الجهل عليها وتوفيقاً منه بهم .

ثم بين صفة هذا البيع والشراء فقال : ﴿ يقاتلون فى سبيل ﴾ والطاعات كلها فى سبيل الله يجاهدون أهوائهم فى الباطن كما يجاهدون أعداءهم فى الظاهر رمياً ، وطعنا ، وضرباً وحرباً ، وسلباً ، فيقتلون ويقتلون .

ومعنى باطنه أن يقتلوا أهواءهم بالرياضة والفطم عن الشهوات [3] ، فيمن الله عليهم بأن يميت ذلك منهم ، ثم قال : ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾.

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ١١١ .

(١) الشرى والبيع متلازمان فالمشترى دفع الثمن وأخذ المثمن والبائع دافع المثمن وأخذ الثمن .

وفى الحقيقة لا يصح فى وصف الحق سبحانه وتعالى : الاشتراء لأنه مالك سواه . ولكن ذلك هنا للشفقة . فالحق بإذنه كانت رحمته بالعبد أتم ، ونظره إليه أبلغ وكان للمؤمن فيه من الغبطة مالا يخفى « الطائف الاشارات جـ ٢ ص ٦٤ »

(٢) ويؤكد ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » ولم يقل « قلوبهم » لأن النفس محل الآفات ، فجعل الجنة فى مقابلتها .

ويقال : اشترى منهم نفوسهم فرهبوا على قلوبهم شكرا له حيث اشترى نفوسهم .

وكان الشيخ أبو على الدقاق رحمه الله يقول : « لم يقل اشترى قلوبهم لأن القلوب وقف على محبته ، والوقف لا يشترى » .

﴿ فازوا بالحظ العظيم ﴾ من الله ، ثم وصفهم فقال :

﴿ التائبون [1] ﴾ فاستحقوا اسم التوبة بعزمهم .

﴿ العابدون [2] ﴾ استحقوا اسم العبادة حين خرجوا من عبودية النفس بتركهم الشهوات .

﴿ الحامدون ﴾ [3] استحقوا اسم الحمد حين تخلصت قلوبهم من إسار النفس ، فاستنارت حتى رأوا حسن صنع الله بهم فأحبوه .

﴿ السائحون ﴾ [4] استحقوا اسم السياحة لما كشف الله لهم عن مكنون الملكوت الغطاء ساحت قلوبهم فى معسكر الأواهين ، وجالت الأرواح منهم فى فضاء عليين .

﴿ الراكعون ﴾ الساجدون [5] استحقوا اسم الركوع والسجود ، ولما وصلوا إلى باب مليكهم خلص إليهم الفزع والهول ، فخشعت الجوارح وخضعت النفوس بما أوتيت ، ورضيت بما نقلت إليها من الأحوال .

---

(١) التائبون : أى الراجعون إلى الله .

(٢) العابدون : الخاضعون لكل وجه الذين لا تسترفهم كرائم الدنيا ولا تستعبدهم عظائم العقبى .

(٣) الحامدون : الشاكرون له على وجود أفضاله .

(٤) السائحون : الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلبا للأستعبار ، ويسيحون بقلوبهم بالتفكر والاستدلال .

(٥) الراكعون : الخاضعون لله فى جميع الأحوال والساجدون بنفوسهم على بساط العبودية .

﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾[1] أهل حمية الله وأنصاره ، أحبوه فغاروا له فى أرضه ، فلم يصبروا حتى غيروا المنكر حمية له ، وأمروا بالمعروف نصحاً له ومحبة .

﴿ الحافظون لحدود الله ﴾ ، خلصوا إليه عند فتح الباب وكشف الحجاب فأقامهم على أموره ، ثم قال :

﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين لما تجلى لقلوبهم فنظروا إلى عظيم عظمته ، أنسوا بقربه ، واطمأنوا إليه ، وسكنت جوارحهم ، وقلوبهم ، فيما لديه ﴾ .

قيل : بشر المؤمنين بماذا ؟

قال فى آية أخرى : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ﴾[2] قيل : من هؤلاء المؤمنون ؟ .

قال : هؤلاء طبقة سوى هؤلاء الذين ذكروا فى هذه الآية ، وليسوا ممن عاملوا الله عز وجل على الشراء والبيع معاملة اللئام ، لم يعطوه أنفسهم حتى اشتراها منهم بالثمن الوافر هؤلاء قوم لما عرفوا الله عز وتعالى طارت قلوبهم إليه شوقا ، فرموا أنفسهم بوسع اليدين . وعلى الساعدين من خلف أنفسهم ، ثم لم يلتفتوا إليها ، وألقوا بأيدهم إلى الله تبارك اسمه سلماً .

لما عرفوا أنهم عبيد ، وأنه ربهم ، وخالقهم ، وباريهم ،

---

(١) الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر : الذين يدعون الخلق إلى الله ، ويحذرونهم عن غير الله .

(٢) سورة الأحزاب الآية رقم ٤٧ .

ومصورهم ومولاهم ، نعم المولى ونعم النصير .

فإن أحببت أن تنظر إلى صفة المؤمن ، فانظر إلى الخليل إبراهيم ﷺ فإن الله تبارك اسمه قال له أسلم قال : « إسلمت لرب العاملين »[1] من غير أن يلتفت إلى عوض ثم افتضاه صدق التسليم بالحريق فوفى له ، فلم يلتفت إلى النفس بعد ذلك ، وقال : حسبى الله[2] ، فابتلاه بمعارضة جبريل عليه السلام فى الهواء ، عندما رمى به فى النار ، فقال : ياإبراهيم هل من حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا حسبى الله فلو كان له التفات إلى نفسه لكان لا يؤمن أن يكون هناك تغيير عند معارضة أمين الله .

فهذا وفاء قوله : ﴿ أسلمت ﴾ ثم ابتلاه بذبح ثمرة فؤاده وفلذة كبده ، فلو كان له التفاوت إلى النفس لعجز عن ذلك ، ولكنه كان كما قال الله عز وجل : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾[3] أخبر عنه أنه أسلم ، أى وفى بذلك الإسلام ، وهو تسليم النفس .

ثم قال ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾[4] إن هذا لهو الإستخراج المبين ، أى إن إسلام إبراهيم عليه السلام من إيمانه بى ، كان سراً فى قلبه فأحببت أن أفشيه عليه بما أمرته حتى يظهر فى سماواتى ، وفى خلقى ، إلى تخوم الأرض فعندها قال ﴿ أتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾[5]

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٣١ .

(٢) حسب : يستعمل فى معنى الكفاية قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ حسبنا الله ﴾ أى كافينا .

(٣) سورة الصافات الآيات رقم ١٠٣ ــ ١٠٥ .

(٤) سورة الصافات الآية رقم ١٠٦ .

(٥) سورة النساء الآية رقم ١٢٥ .

حين قال ياخليلي لقد قمت لى مقاماً أو جبت لك به الخلة على نفسى ، فاقتص نبأه فى تنزيله علينا ، ثم قال : ﴿ سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين[1] ﴾ فأثنى فى آخر هذا الوصف كله بأنه من المؤمنين .

عدنا إلى ما ذكرنا من باب التوبة ، فأما من طريق الخبر .

فحدثنا صالح بن محمد قال حدثنا القاسم بن عبد الله العمرى ، عن سهل بن أبى صالح عن أبيه عن القعقاع بن حكيم ، عن إبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكته سوداء ، فإن عاد نكتت أخرى ، فإن تاب ونزع صقل قلبه »[2] ثم قرأ : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يؤمئذ لمحجوبون[3] ﴾ فما دام فى ذنبه ، فالرين على قلبه ، وهو ظلمة ، تلك المعصية .

لأنه لما هم بقلبه ثار الذخان من معدن الشهوة إلى صدره ، فصار الصدر بمنزلة بيت فيه سراج نير ، وفيه دخان أو غبار ، فقد أشتبه على عينه ما يتصور فيه على الحائط البين .

فكذلك الصدر إذا ثار فيه الدخان كان الصدر مشرقاً بنور الله من القلب ، وعين القلب فى ذلك النور ، ينظر إلى ما يتمثل له فى صدره .

---

(١) سورة الصافات الآيات رقم ١٠٩ ــ ١١١ .

(٢) سبق تخريج الحديث فارجع إليه .

(٣) سورة المطففين الآيتان رقم : ١٤ ، ١٥

أى غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المعاصى وكما أنهم اليوم ممنوعون عن معرفته ، فهم غذا ممنوعون عن رؤيته « الطائف الأشارات » .

فإذا ذكر الله ، أشرق الصدر بنور القلب[1] ، فصار كبيت ، انفتح منه كوة فوقع فيه شعاع الشمس ، فأشرق البيت بنور الشمس .

فإذا حدث فى البيت شيء وقع له ظل على الحائط ، كذلك إذا حدث فى الصدر شيء سوى ذكر الله تصور من عينى القلب وهو ظل ذلك الشيء .

فإن كان من ذكر الآخرة فهو ظل ، وإن كان من ذكر الدنيا ، وشهوات النفس ، فهو دخان .

فإذا عملت الجوارح صارت ظلمة وانكبس النور فى القلب ، وصار الصدر بمنزلة بيت فيه سراج فى إناء مغطى ، فصار عن الله محجوباً .

كما صار الكافر غداً من الله محجوباً كذلك المؤمن المصر يصير قلبه عن الله محجوباً ، وكما صار الكافر غداً ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾[2] كذلك المصر إذا صار قلبه محجبوباً عن الله صلى

(١) والصدر موضع نور الاسلام وهو موضع حفظ العلم المسموع الذى يتعلم من علم الأحكام والأخبار وكل ما يعبر عنه بلسان العبارة ، ويكون أول سبب الوصول إليه التعلم والسمع وإنما سمى صدرا لأنه صدر القلب .

أما القلب فهو داخل الصدر وهو معدن نور الايمان ونور الخشوع والتقوى ، والمحبة ، والرضا ، واليقين ، والخوف والرجاء ، والصبر ، والقناعة .

والقلب هو الأصل ، والصدر هو الفرع ، وإنما بتأكد بالأصل الفرغ « الحكيم الترمذى بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب » .

(٢) سورة المطففين الآية رقم ١٦ .

بجحيم نفسه [1] ، وهو شهواته التى تحرته والمؤمن لا يحجب عن الله يوم القيامة ، فكذلك إذا نزع عن الدنيا صقل قلبه فاستنار وأشرق النور من قلبه فى صدره فلا يحجب عنه قلبه فيصير كهيئة ماروى فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه وليس تراه »[2] ولكن من مشاهدة القلب بالإجلال والتعظيم والهيبة له فيصير كأنه يراه .

---

(١) أصل الصَّلْى : لايقاد النار فالمادة تدور حول ايقاد النار « بصائر ذوى التمييز » واصكلى بالنار ، وصليت الشاه شويتها . وقوله تعالى ﴿ لا يصلاها إلا الاشقى ﴾ سورة الليل قبل معناه : لا يصطلى بها إلا الأشقى .

(٢) الحديث رواه الحكيم بالمعنى « منازل العباد من العبادة » وهو جزء من حديث متفق عليه عندما ما سئل النبى ﷺ عن الاحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وعبارة « وليس تراه » التى ذكرها الحكيم لا تعرف فى بقية كتب السنة .

والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التفسير باب إن الله عنده علم الساعة تفسير سورة لقمان جـ ٨ ص ٥١٣ عن أبى هريرة ط المطبعة السلفية .

واخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الايمان باب بيان الأيمان والاسلام والاحسان ووجوب الايمان بإثبات قدرة الله سبحانه وتعالى عن أبى هريرة جـ ١ ص ٣٩ ط عيسى البابى الحلبى .

وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب الايمان باب ما جاء فى وصف جبريل للنبى ﷺ الايمان والاسلام جـ ٥ ص ٦ عن عمر بن الخطاب ط مصطفى الحلبى .

وأخرجه أبو داود فى سننه كتاب السنة باب فى القدر عن عبد الله بن عمر جـ ٢ ضص ٥٢٦ .

وأخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب المقدمة باب فى الايمان جـ ١ ص ٢٥ عن أبى هريرة ط عيسى الحلبى .

المنزلة الثانية : منزلة الزهد فى الدنيا :

إن لله عبادا قطعوا هذه العقبة ، فتخطوا إلى الزهد[1] فى الدنيا لما استنارت قلوبهم بالتطهير من الذنوب .

نظروا إلى باطن الدنيا بأبصار قلوبهم ، فهجموا على دناءتها وعيوبها ومحاتف مهاويها ، وعميق مذاهب أوديتها ، وأنها حبائل الشيطان ، بها يصطاد ولد آدم عليه السلام ، وبها يصل إلى نهماته . فعافوها ، وقذروا ذكرها ، وتجنبوا أسبابها ، وهجروا قربها موافقة لمليكهم السيد الكريم ، فلا يذكرونها ولا يتشاغلون بذمها ، وشتمها ، بل صيروها منسية متروكة مذمومة .

وما ذكرها أحد بالذم لها ممن علم حالها إلا رجع باللوم على نفسه ، وعلى ذكراها لما رأى من النقص والضعف فى أمره أن زل عن درجة ذكر الرحمن ، إلى ذكر شيء من قلته وذلته .

وهو أنه على ربه وصغر قدره عنده ، ذلك لأنهم رأوامليكهم زواها عن أوليائه وخيرته ، وأهل صفوته ، من الرسل والأنبياء عليهم السلام .

فلم يمكنهم منها إلا ما يسدون به جوعاً أو يسترون به عورة ،

---

(١) الزهد هو الثقة بالله تعالى وأن تترك الدنيا ثم لا يبالى من أخذها روى الترمذى وابن ماجه والامام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك أو ثق مما فى يد الله ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك » .

ويقول الامام ابن تيمية : الزهد ترك مالا ينفع فى الآخرة وقال الفضيل بن عياض : الزهد حرمان ، فى كتاب الله تعالى « لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم » الحديد .

وبسطها لأعدائه وأمكنهم منها ، ولم يرضها لأوليائه وأصفيائه داراً ولا قراراً ، وأن ينظروا إليها بعين الإعجاب والمحبة لها .

قال الله عز وجل لمحمد ﷺ : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه[1] » فجاءنا فى هذا الخبر عنه ﷺ أنه مر ذات يوم بعد نزول هذه الآية بإبل قد عسنت[2] فى أبوالها ، كأنه يصفها بالسمن ، قال : فتقنع بردائه ، وغطى إحدى عينية وأشغل الأخرى لمشيه ثم تلا هذه الآية ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم[3] ﴾ الآية ، وقال فى حديث آخر روى عنه ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[4] » فالمسجون نهمته الخروج .

وجعلها دار لعب ولهو وغرور وزينة وتفاخر وتكاثر . ثم حذرنا

---

(١) سورة طه الآية رقم ١٣ .

(٢) العسن : نجوع العلف والرعى فى الدواب . عسنت الدابة : بالكسر عسنا نجع فيها العلف والرعى . وكذلك الابل إذا نجع فيها الكلا وسمنت يقول أبو عمرو : أعسن إذا سمن سمنا حسنا . « لسان العرب لابين منظور » .

(٣) سورة الحجر الآية رقم ٨٨ .

(٤) أخرجه الامام مسلم فى الصحيح كتاب « الزهد » جـ ٤ ص ٢٧٧٢ عن أبى هريرة ط عيسى البابى الحلبى .

أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الزهد باب ما جاء : أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر جـ ٤ ص ٥٦٢ عن أبى هريرة ط مصطفى الحلبى وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

وأخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الزهد باب « مثل الدنيا » جـ ٢ ص ١٣٧٨ عن أبى هريرة .

وأخرجه أحمد بن حنبل جـ ١ ص ١٩٧ ، ٣٨٩ ، ٤٨٥ .

عز وجل فقال : ﴿ لا تغرنكم الحياة الدنيا[1] ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين [2] ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا[3] ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المئاب[4] ﴾ وقال : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾[5] .

وقال : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون[6] ﴾ وقال عز وجل فيما روى عنه فى قصة موسى صلوات الله عليه « أنى لاذودهم ــ يعنى الأولياء ــ عن الدنيا كما يذود الراعى الشفق إبله عن مبارك العرة ، وإنى لاجنبهم سلوتها ونعيمها كما يجنب الراعى غنمه عن مراتع الهلكة : أريد أن أطهر بذلك قلوبهم وجلودهم » .

وأما ذكر المنزلة الثانية ، وهو الزهادة فى الدنيا ، فهو قوله جل

---

(١) سورة لقمان الآية رقم ٣٣ .
(٢) سورة القصص الآية رقم ٨٣ .
(٣) سورة الكهف الآية رقم ٧ .
(٤) سورة آل عمران الآية رقم ١٤ .
(٥) سورة الزخرف الآيات رقم ٣٣ ــ ٣٥ .
(٦) سورة المؤمنون الآية رقم ٥٦ .

وعلا ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المأب ، قل أؤ نبئكم بخير من ذلكم[1] ﴾ .

فوصف الجنات مع الخلد فيها والأزواج المطهرة والرضوان [2] ، يزهدهم فى هذه ويقللها فى أعينهم ، وقال عز وجل فى آية أخرى .. ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ﴾[3] .

وقال تبارك اسمه ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم ﴾[4] أى صبروا عن الفانى يجزيهم أجرهم من الباق بأحسن ما كانوا يعملون وقال .. تعالى .. ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[5] فبالصبر عن الدنيا وصلوا إلى الرياسة فى الدين ، والأمانة للخلق ، والأجر العظيم فى الأخرة .

وأما من طريق الخير فحدثنا عبد الله بن أبى زياد قال حدثنا سيار بن سليمان عن عبد الله بن شميط قال : سمعت الحسن يحدث عن سلمان رضى الله عنه قال : عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً فقال : « ليكن

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٤ وجزء من آيه ١٥ .

(٢) ذلك إشارة إلى قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جناب تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وازواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾ .

(٣) سورة القصص الآية رقم ٦٠ .

(٤) سورة النحل الآية رقم ٩٦ .

(٥) سورة السجدة الآية رقم ٢٤ .

بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب رجل أراد شقة ونزل منزلا ، فأكل وأعلف راحلته ثم سار فنزل منزلا ، فأكل وأعلف راحلته ثم سار فنزل منزلا ، فأكل وأعلف راحلته حتى قطع شقنه ونفذ زاده »[1] وحدثنا صالح بن محمد ، وعبد الجبار بن العلاء قالا : حدثنا سفيان عن اسماعيل بن أبى خالد ، قيس بن أبى حازم ، عن المستورد أخى بنى فهر سمع رسول الله ﷺ يقول : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كرجل أدخل أصبعه في اليم ، لينظر بم ترجع إليه [2] » حدثنا أبو الربيع الأيادى قال حدثنا اسحق بن نجيح عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى قال : قلنا يا رسول الله ألا نبنى لك قال لا ، ولكن عريش كعريش موسى من جريد وثمام فإن الأجل أقرب من ذاك ألا إنى لم أخلق للدنيا ولم تخلق لى . إنما رفع لى علم فشمرت إليه المضمار اليوم والسباق غداً .

المنزلة الثالثة : منزلة عداوة النفس :

إن لله عباداً قطعوا هذه العقبة ، ونصبوا العداوة لأنفسهم فى ذات الله وأشهدوا الله على مقتهم أنفسهم ، وأقسموا بعزة مليكهم ألا يسالموها

---

(١) انظر السيوطى فى الدر المنثور جـ ٣ ص ٢٣٨
وأبى نعيم فى حلية الأولياء ١ / ١٩٦ ، ٢ / ٢٣٧
وانحاف السادة المتقين ١٠ / ٩٤
وكنز العمال ٦/ ٦٢ .

(٢) أخرجه الامام مسلم فى صحيحة كتاب الجنة باب فى فناء الدنيا ، وبيان الحشر يوم القيامة جـ ٤ ص ٢١٩٣ ط عيسى البابى الحلبى .

والمعنى : ما الدنيا بالنسبة للأخرة فى قصر مدتها ، وفناء لذاتها ودوام الأخرة ، ودوام لذاتها ، إلا كنسبة الماء الذى يعلق بالاصبع إلى باقى البحر « شرح النووى على صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٧٢ ط كتاب الشعب » .

إيام الدنيا ، حتى يقفوا بين يدى العزيز ، يوم الموقف مع الهجران لها بالعداوة ، والمقت لها فى ذاته .

لأنه استحكمت معرفتهم بها . وهجموا على دغل[1] سرائرها ونجيات دواهيها ، وفطنوا لخدعها ومكايدها وولوعها بما ذم الله ، وزجر عنه ، فوجدوها مأوى كل شر ، وسبب كل حجاب بينهم وبين ربهم .

لا لها دعة ولا حياء ولا قار ولا طمأنينة ، إنما هى كالبهيمة لا ترفع رأسها حتى تقضى نهمتها ، وحاجتها من الدنيا فصارت البهيمة مذمومة فى كتاب الله منسوبة إلى كل دناءة أمارة بالسوء ، أمروا بمجاهدتها وندبوا إلى رياضتها .

فقاموا على سوقهم فى تأديبها ، حتى كسروا شرتها ، وذللوا موتها ، وتركوها وهى مغمومة منقادة ، وقد وصفنا على الاستقصاء رياضتها فى كتاب لنا يقال له « غور الأمور »[2] فصارت قلوبهم محرزة عن الائتمار بما تأمر النفس ، وتشير إليه وصارت النفس معزولة عن أمرتها ، واستوى القلب ملكاً على سريره ، والروح ترجمانه والعقل

---

(١) الدغل ــ بالتحريك : الفساد ، مثل الدخل . والدغل دخل فى الأمر مفسد ومثله قول الحسن : اتخذوا كتاب الله دغلا أى أدخلوا فى التفسير وادغل فى الأمر : أدخل فيه ما يفسده ويخالفه ورجل مدغل : مخاب متسد .

وفى الحديث : « اتخذوا دين الله دغلا » أى يخدعون الناس وأصل الدغل : الشجر الملتف الذى يمكن أهل الفساد فيه . وقيل هو من قولهم : أدغلت فى هذا الأمر . إذا أدخلت فيه ما يخالفة ويفسده .

« ابن منظور لسان العرب جـ ٢ ص ١٣٩ ط دار المعارف » .

(٢) غور الأمور من مؤلفات الحكيم الهامة والتى نبحث فى قضايا النفس والكتاب لا يزال مخطوطا وهو من النوادر .

وزيره ، والأمر والنهى الملك ، والراعى الروح ، والمدبر العقل وقد كانت النفس من قبل ذلك فى معدنها ملكا على القلب مطاعة . فصارت بتوفيق الله للعبد مسلوبة المملكة ساقطة المنزلة ، مخيبة مقصاه .

فنجوا من آفاتها وخرجوا من دواهيا ، براة سالمين .

وألبسوها ثوب المذلة ، فورثوا بذلك حب الله سيدهم ومليكهم ، وما ورثوا ذلك حتى أوجب الله لهم محبته .

وفيما نقل ، إلينا من الأخبار أن الله تبارك اسمه قال : ﴿ ياداود عاد نفسك وودنى بعداوتها ﴾ وروى لنا عن عيسى بن مريم ﷺ أنه قال : « أجيعوا أنفسكم واعروها واظمئوها لعل قلوبكم ترى الله عز وجل » وروينا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حبك الشيء يعمى ويصم »[1] حدثنا بذلك أبى قال : حدثنا يحيى الحمانى ، عن ابن شريك عن أبى بكر بن أبى مريم عن خالد بن محمد عن بلال بن أبى الدرداء عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حبك الشيء يعمى

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الأدب باب فى الهوى جـ ٤ ص ٣٣٤ من رواية أبى الدرداء .

وأحمد فى المسند من حديث أبى الدرداء ٥ / ١٩٤ ، ٦ / ٤٥٠

وذكره السيوطى فى الجامع الصغير وعزاه لأحمد والبخارى فى التاريخ وأبو داود عن أبى الدرداء ، والخرائطى فى اعتلال القلوب عن أبى برزة زابن عساكر فى التاريخ عن عبد الله بن أنيس ، ومز له بالحسن .

وقال المناوى فى فيض القدير ٣ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ أخرجه أحمد والبخارى فى التاريخ وأبو داود فى الأدب عن أبى الدرداء .

وأشار الشوكانى فى الفوائد المجموعة ص ٢٥٥ إلى ذكر ابن الجوزى والصغانى =

ويصم[1] فالدنيا ضد الآخرة فمن أحب الدنيا أعماه وأصمه عن الآخرة ، ومن أحب الآخرة أعماه وأصمه عن الدنيا ، والنفس تضاد ربها ، وتدعو إلى طاعتها ، فمن النفس أعماه وأصمه عن الله ومن أحب الله أعماه وأصمه عن النفس ، فوجدنا هذا ميزان الخلق به يوزنون على درجاتهم ، محب النفس آيس عن كشف الغطاء ، والوصول إليه لأنه عدوه ، والمقبل على العدو معرض عن الله ، ومحب الله دافع باله عن النفس معرض عنها مقبل على الله .

وأما ما ذكره فى المنزلة الثالثة ، وهو عداوة النفس ، فقد أبنأنا فى تنزيله شأنها فقال : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربى[2] ﴾ رحمها يقهرها ، وأذهب بالخوف شهواتها ، ولم نجد فى التنزيل خصلة مذمومة ألا وهى منسوبة إلى النفس ، قوله : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾[3] السامرى ﴿ وكذلك سولت لى نفسى[4] ﴾

الحديث فى الموضوعات وهو فى سنن أبى داود بإسناد ضعيف فيه بقية وابن أبى مريم .

وقال السخاوى فى [المقاصد الحسنة] ص ٨١ رواه أبو داود والعسكرى عن أبى الدرداء مرفوعاً وموقوفاً والوقف أشبه . وفى سنده ابن أبى مريم وهو ضعيف ورواه أحمد عن أبى الدرداء فوقفه والرفع أكثر .

وقال السخاوى أيضا : لم ينفرد به بقية فقد تابعة أبو حيوه شريح بن يزيد ومحمد بن حرب كما عند العسكرى ، ويحى البابلى كما عند القضاعى فى مسنده وعصام بن خالد ، ومحمد بن مصعب كما عند أحمد فى مسنده .

(١) سبق تخريج الحديث .
(٢) سورة يوسف الآية رقم ٥٣ .
(٣) سورة يوسف الآية رقم ٨٣ .
(٤) سورة طه الآية رقم ٩٦ .

وقال : ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه[1] ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ قلتم أنى هذا ، قل هو من عند أنفسكم[2] ﴾ وقوله عز وعلا : ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم[3] ﴾ فى آى كثير من القرآن ينبئك أن النفس مأوى كل سوء ، وقال : ﴿ ونهى النفس عن الهوى[4] ﴾ وقال : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[5] ﴾ .

وأما ما جاء فى الخبر فحدثنا عمر بن أبى عمر عن يحيى ابن بكير المصرى قال حدثنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن أبى مالك الأشعرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ليس عدوك الذى إن قاتلك أدخلك الله به الجنة ، وإن قتلته كان لك نوراً ، ولكن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبك ، ثم ولدك الذى خرج من صلبك وزوجتك التى تضاجعك وما ملكت يمينك »[6] .

---

(١) سورة المائد الآية رقم ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ١٦٥ .

(٣ سورة الحديد الآية رقم ١٤ .

(٤ سورة النازعات الآية رقم ٤٠ .

(٥) سورة ص . الآية رقم ٢٦ .

(٦) ذكر النبهانى فى كتابه الفتح الكبير جـ ٣ ص ٦٠ ــ ٦١ عن أبى مالك الأشعرى بلفظ ليس عدوك الذى أن قتلته كان لك نور وأن قتلك دخلت الجنة ولكن اعدى عدو لك ولدك الذى خرج من صلبك ثم أعدى عدو لك مالك الذى ملكت يمينك وعزاه إلى الطبرانى وقال حديث حسن .

وكذلك ذكره صاحب فيض القدير جـ ٥ ص ٣٦٧ عن أبى مالك الأشعرى وقال حسن ولكن فى شرحه قال ضعفه المنذرى .

ورواه البيهقى فى الزهد عن ابن عباس باسناد ضعيف وله شاهد من حديث أنس .

انظر « جامع الأحاديث » للجامع الصغير وزوائده مع الجامع الكبر ومن الجامع الأزهر .

حدثنا محمد بن اسماعيل بن سمرة الأحمس قال حدثنا إبراهيم ابن عيينه ، عن أبى الصباح ، سمعه من أبى نصير ، عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال : ﴿ من مقت نفسه فى ذات الله تعالى أمنه من مقته يوم القيامة ﴾ .

وقد انبأنا فى تنزيله فى مقت أعدائه فقال : ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾[1] .

فأعلمنا أنهم مقتوا أنفسهم فى الأخرة ، لما علموا وانكشف لهم الغطاء ، عن معرفة نفوسهم ، وما عميت عليهم فلم تنفعهم وكان مقت الله عز وجل لهم أكبر من مقتهم أنفسهم .

فمن عرف نفسه هاهنا من المؤمنين ، وانكشف له الغطاء ، عن سوء سيرتها مقتها ، لما رآها دعيت إلى الإيمان وهو الطمأنينة إلى ربها ، وكذلك البالغ من الإيمان فأبت واطمأنت إلى من دونه مقتها على ذلك فى ذانه ، ومن أجله فأثابه الله على ذلك أن أمنه من مقته .

وفى ترك الشهوات ورياضة النفس أحاديث[2] كثيرة تركتها

انظر جـ ٥ ص ٤٨٩ الحديث رقم ١٨٢٣٠ ذكر النص الذى عند الترمذى كاملا وأشار إلى أنه عند « العسكرى فى الأمثال عن سعيد بن أبى هلال مرسلا » وهو من زيادات الجامع الكبير .

(١) سورة غافر الآية رقم ١٠ والمعنى : أن الذين كفروا ينادون : لكراهة الله وبغضه لكم أكبر من كراهتم أنفسكم التى أوردتكم موارد العذاب ، حين كنتم تدعون إلى الايمان مرة بعد مرة فتسارعون إلى الكفر « أنظر المنتخب من التفسير ص ٦٩٥ » .

(٢) يمكن الرجوع إلى كتب السنة فسوف تجد الأحاديث الصحيحة التى جاءت عن الرسول ﷺ .

لإستفاضتها . وتواتر الأخبار بها منها قول عيسى صلوات الله عليه : « أجيعوا أنفسكم ، واظمئوها واعروها لعل قلوبكم ترى الله » .

ومنها قول رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه : « وما تقولون فى صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأشبعتوه وأرويتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أنتم أهنتموه وأجعتموه وأظمأتموه وأعريتموه أفضى بكم إلى خير غاية ، قالوا يارسول الله : هذا شر صاحب فى الأرض ، قال عليه السلام فوالذى نفسى بيده إنها لأنفسكم التى بين جنوبكم » حدثنا بذلك محمد بن سهل قال حدثنا عمر بن منصور القيسى قال حدثنا عبد الواحد بن زيد عن زيد عن الحسن عن رسول الله ﷺ .

المنزلة الرابعة : منزلة المحبة :

إن لله عبادا قطعوا هذه العقبة ، فتركوا هذه النفس مزجورة منسية ، وصارت أرواحهم معلقة بالمحل الأعلى ، وزاقوا لذيذ العيش هناك .

طعم حلاوته أنساهم طلب الأحوال فى الدنيا : من الضيق ، والسعة ، والعز ، والذل ، والبؤس ، والنعمة ، والحار ، والبارد .

فهذه الأشياء جارية عليهم فى دار الدنيا من غير اشتغال منهم بطلبها ولا بفوتها ما وجدوا من ذلك بغيتهم .

قد انقطعت أطماع نفوسهم عن كلفة هذه الأشياء ، بل هجمت على أمور ذاقت طعم قرب الله تبارك اسمه ولطفه وبره بهم ، فغلبت على شهواتهم ولذاتهم فى الطاعات .

فإبدانهم مسحوبة إلى نفاذ آجالهم ، وأرواحهم عندهم عارية ، قيام

على أطرافهم ، شاخصة أبصارهم ، قلوبهم إلى الملك الأعلى متى يدعون فيجيبون .

وذلك أنهم لما ورثوا حب مليكهم ، جرت المحبة فى أبدانهم . وإنما سميت المحبة محبة ، لأنها خلصت إلى حبة القلب[1] ، وهو مجتمع العروق فجرت وشربت منها عروقهم حتى رويت .

فمالهم أيام الحياة من نهمة إلا مناجاته ، وما لهم من الآخرة نهمة إلا عفوه ومالهم من الجنة نهمة إلا زيارته ، وما لهم من الزيارة نهمة إلا ملاقاته والنظر إليه وأن يسمع كلامه بأن يحل عليه رضوانه ، أكبر من كلمة ، رضوان من الله أكبر ويكفية تحية « سلام قولا من رب رحيم »[2] ليس بينه وبينهم فى السلام والكلام ترجمان .

وأما ذكر المنزلة الرابعة فهم أهل المحبة والقربة ، وهو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله ﴾[3] و اتقوا الله فى ترك الذنوب ، وابتغوا القربة فى مجاهدة الهوى .

---

(١) ويقول القشيرى : الحب مأخوذ من الحب ، والحب جمع حبة وحبة القلب ما به قوامه فسمى الحب حبا باسم محله « الرسالة القشيرية ص ١٤٤ » .

والمحبة عاطفة واحدة ، أو حقيقة واحدة ، تتطور وتتصعد وفى كل مرحلة من مراحل تصعدها تتخذ اسما : الحب ، الهوى ، العشق ، الود ، الغرام ، الهيام ، « المعجم الصوفى ص ٣٠٢ » .

(٢) سورة يس الآية رقم ٥٨ .

(٣) سورة المائدة : الآية رقم ٣٥ .

وابتغاء الوسيلة : التبرى عن الحول والقوة ، والتحقيق بشهود الطول والمنة .

ويقال ابتغاء الوسيلة : ما سبق لك من احسانه .

=

لأن مجاهدة الهوى تطهير ، وكلما تطهر ازداد قرباً ، ثم قال تبارك وتعالى :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[1] فأوجب لهم الهداية من عنده إلى سبيله إليه بمجاهدة الهوى ، فإذا فتح لهم طريقاً إليه وصلوا إلى الباب .

وإنما صمي الهوى لأن قلبك منذ أن عرفه فهو فى الأرتقاء إليه ، وهذه الشهوات تهوى بك عنه إلى الإخلاد والركوب إليها .

والشهوة هى اهتشاش النفس[2] ، تقول : اهتش واشتهى كلاهما بمعنى ، ولكن الحروف فيه قدمت وأخرت استعمالا فى نوعين .

فلما تطهروا من الهوى ، والميلان عن الله استوجبوا محبة الله فأورثهم حبه .

فإن أحببت أن تعرفهم ، فانظر إلى خصالهم ، التى وصفهم الله تعالى بها ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم

ويقال الوسيلة : ما سبق لك من العناية القديمة .
ويقال الوسيلة : خلوص العقل عن الشك .
ويقال الوسيلة : استدامة الصدق فى الولاء إلى أخر العمر .
ويقال الوسيلة : تجريد الأعمال عن الرياء ، وتجريد الأحوال عن الاعجاب ، وتخليص النفس عن الحظوظ « الطائف الأشارات » جـ ١ ص ٤٢١ .

(١)سورة العنكبوت الآية رقم ٦٩ والمعنى : والذين بذلوا جهدهم ، واحتملو المشقة فى سبيل نصرة ديننا ، لنزيدنهم هداية إلى الخير والحق ، وإن الله لمع المحسنين الذين يحسنون أعمالهم ، يعينهم وينصرهم .

(٢) ويقال أن الشهوة هى نزوع النفس إلى ما تريده وذلك فى الدنيا ضربان : صادقة كاذبة فالصادقة : ما يختل البدن من دونه كشهوة الطعام عند الجوع . والكاذبة مالايختل =

عن دينة فسوف يأت بقوم يحبهم ويحبونه[1] ﴾ .

فبدأ بذكر محبته لهم ، ثم ثنى بحبهم إياه ليعلم أن من حبة إياهم قالوا أحبه ، ثم وصف حالهم ، فقال : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين[2] ﴾ أى ينكسرون عند كل حق ، ويخضعون تواضعاً لله ، يذلون عند المؤمنين ومعاملتهم ، وكذلك عند كل حق وباطل ،فهم أذلة أعزة ، يذلون لربهم عند حقه ، ويعزون لربهم عند الباطل ، ثم قال ﴿ يجاهدون فى سبيل الله ﴾[3] يجاهدون أهواءهم فى العبودية ولا يخافون لومة لائم ، تركوا النفس مطروحة فى ناحية منسية لا يبالون بها بالة من طلب جاه أو قدر أو منزلة من قلوب الخلق .

الذم والمدح عندهم بمعنى واحد فى ذات الله ، ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾[4] ، وقال عز وجل فى آية أخرى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ﴾[5] . فاستخرج سرائر أهل صدق

من دونه » بصائر ذوى التميز جـ ٣ ص ٣٥٨ » .

(١) سورة المائدة الأية رقم ٥٤ والله سبحانه وتعالى جعل صفة من لايرتد عن الدين: أن الله يحبه ويحب الله . وفى ذلك بشارة عظيمة للمؤمنين لأنه يحب أن يعلم أن من كان غير مرتد فإن الله يحبه . وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمنا يحب إن لله محبا فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه وفى الآية دليل على جواز محبة العبد لله ، وجواز محبة الله للعبد ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه :
— أما أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والاحسان إليه ، والمدح والثناء عليه .
— أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبة وتخصيص محله وكما أن رحمته إرادته لانعامه فمحبته إرادته لاكرامه « لطائف الاشارات » .

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٥٤ .

(٣) سورة المائدة الآية رقم ٥٤ .

(٤) سورة الحديد الآية رقم ٢١ .

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ٣١ ، والمعنى كما جاء فى المنتخب من التفسير :

محبته باتباعهم محمداً ﷺ فى جميع الأمر والنهى ، وفى جميع الحالات التى دلهم عليها ، وقالت الأنصار إنا لنحب ربنا ، فأنزل الله عز وجل ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله[1] ﴾ قال البر ، والتقوى ، وذلة النفس ،والتواضع[2]،وروى ذلك عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن رسول ﷺ ، حدثنا بذلك عمر بن أبى عمر قال حدثنا الحسن ابن أبى الربيع قال حدثنا عمرو بن أبى هرمز قال حدثنا أبو عبد الرحمن الدمشقى ، عن عطاء ابن أبى رياح عن أبى الدرداء ، عن رسول الله ﷺ .

وحدثنا محمد بن حسين قال حدثنا أبو عمر الخوصيى عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال : قالت الأنصار : إنا لنحب ربنا فأنزل الله (عز وجل) ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ فجعل أتباع محمد ﷺ علماً لحبه .

- وأما من طريق الخبر فى مجاهدة الهوى فحدثنا عمر بن يحيى ن نافع الأبلى قال حدثنا حكيم بن خزام عن العلاء بن كثير عن مكحول عن أبى الدرداء قال : يارسول الله ، أى الجهاد أفضل ؟ قال : جهاد المرء نفسه[2] . وعامل الناس أمراً بمعروف ونهياً عن منكر فذاك المستكمل لسبيل الله .

« قل ان كنتم صادقين فى دعواكم أنكم تحبون الله وتريدون أن يحبكم الله . فإن ذلك يحبكم الله به ، يثيبكم الله عليه بالاحسان إليكم والتجاوز عن خطاياكم ، والله كثير الغفران والرحمة لعباده » .

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٣١ .

(٢) يتفق السالكون فى كل نصوصهم علىٰ ضرورة بل ضمنية الرياضة والمجاهدة . لأنها المدخل الوحيد للتحكم فى النفس الأنسانية ، والسيطرة عليها . كما يؤكد ذلك الحكيم

حدثنا الفضل بن محمد قال حدثنا موسى بن أيوب العدوى عن معاوية بن هشام الكندى قال حدثنا النضر بن عرب ى قال : اجتمع عندى فى هذا البيت ثمانية عشر رجلا من التابعين ، فيهم عطاء وطاوس ومجاهد ، فقال رجل منهم : « أجهد الجهاد مجاهدة الرجل نفسه » . فقالوا كلهم صدق ، وتدبرت فيما جاءنا من الأخبار فى شأن عامر بن عبد قيس فوجدت أربعة أحاديث وجدت منازله فيها . منها حديث عبد الله بن أبى زياد قال حدثنا سيار قال حدثنا جعفر بن سليمان ورباح القيسى قال حدثنا عبد الرحمن الخزاز قال حدثنا الحسن قال : كان مجلس لعامر بن قيس فى مسجد الجامع ، فكنا نجتمع إليه فيه ، ففقدناه يوماً حتى ظننا أنه ضارع أصحاب الأهواء .

قال الحسن : فأتيناه فى أهله ، فقلنا يا أبا عبد الله تركت مجلسك وأصحابك ، وجلست هاهنا وحدك فقال : مه مجلس كثير الأغاليط والتخليط ، قلنا هذا كان حقنا الذى كنا ظنناه به قلنا يا أبا عبد الله : فإذا كانوا كذلك فما تقول فيهم .

قال وما عسى أن أقول فيهم ؟ لقيت ناساً من أصحاب أحمد ﷺ إن أخلص الناس المحفوفون بستر الله المغذون برحمة الله ، المحفوظون فى نصر الله ، المرعون فى كنف الله ، المربون بلطف الله ، الأخصون بسر الله ، المقربون غداً فى دار زيارة الله ، المكرمون غدوة وعشية بالنظر إلى الله .

الترمذى حيث يقول فى كتاب الرياضة وآدب النفس : « النفس إذا فطمتها انكسرت عن الالحاح عليك » فمتى تحكم المريد بنفسة لم يبق فيه من الشهوات ولا من الهوى ما يثقل عليه قبوله من ربه .

قد ألهاهم عن نعيم الجنان التلذذ بقرب الله ، فهم الخاشعون ، فلك لأنهم وصلوا إليه فماتت حركة كل عرق بما فيه من الهوى ، وخشعت الجوارح فلما دام ذلك من حالهم ، وصنع الله على ما وصفنا كان ذلك الصنع صلة منه لهم ، وصلهم فاتصلوا فذهبت الحياة فافتقدوا رؤية النفس ، وخاضوا إليه بحار المعرفة ، مستأنسين به مترددين فى تدبيره وأخلص الناس إيماناً يوم القيامة ، أشدهم محاسبة لنفسه فى الدنيا ، وأشد الناس فرحاً يوم القيامة ؛ أشهم حزناً فى الدنيا .

وإن أكثر الناس ضحكاً يوم القيامة أكثرهم بكاء فى الدنيا » .

وأخبرونى أن الله عز وجل قد فرض فروضا ، وسنناً ، وحد حدوداً ، فمن عمل بفرائض الله وسننه ، واجتنب حدوده ، أدخله الله الجنة بغير حساب ، ومن عمل بفرائض الله وسننه ، وارتكب حدوده ، ثم تاب ثم أرتكب ، ثم تاب ، ثم ارتكب استقبل أهوال يوم القيامة وزلازلها وشدائدها ، ثم أدخله الله الجنة .

ومن عمل بفرائض الله وسننه ، وارتكب حدوده لقى الله مسلماً إن شاء عذبه وإن شاء رحمه فقلت هذه أول منازله ، جانب الخلق وأقبل على إحكام التوبة يحاسب نفسه ، ويقتضى الصدق منها .

ثم حدثنا أبو عمر الملكى عن هشام عن الحسن قال : قال عامر : وجدت عيش الناس فى الدنيا فى أربعة : « النساء واللباس ، والطعام ، والنوم » . فأما النساء فما أبالى أمراة ضاجعت أو جداراً .

وأما اللباس فما كنت أبالى بما واريت به عورتى .

وأما النوم والطعام فقد غلبانى إلا أن أصيب منهما ولأضر من بهما

جهدى فقلت : هذه المنزلة الثانية ، وهو فى رياضة النفس يمنعها الطعام والشراب والنوم ويفطمها عن العادة .

ثم حديث حدثنا به الفضل بن محمد قال حدثنا محمود بن خالد الدمشقى قال حدثنا الوليد بن مسلم قال حدثنا ابن جابر قال : قيل لعامر بن قيس إن عثمان رضى الله عنه قد قتل ، فلو رجعت إلى جندك بالبصرة وإخوانك ، فقال : « لولا أنى جعلت على نفسى ألا أرحل رحلة هوى لفعلت ، ما أجدنى آسى على شىء منها إلا على قوم كنت آلفهم وآجالسهم فى الله وعلى ظمأ الهواجر » ، فقلت هذه منزلة ثالثة ، وهى فى قطع الهوى وإماتته كى لا يختار حالا ولا يلتذ بشىء دونه .

ثم حديث حدثنا به عمر بن أبى عمر قال حدثنا ابن أبان عن محمود بن خالد ، عن محمد بن أبى مكرم ، عن عامر بن عبد قيس قال « ما وقع بصرى على شىء إلا رأيت الله أقرب إلى منه » فقلت : هذه منزلة رابعة ، منزلة أهل القربة والطهارة ، ومن لا يحجه الله عن شىء . عدنا إلى ذكر المنازل .

المنزلة الخامسة : منزلة قطع الهوى :

إن لله عباداً قطعوا هذه العقبة فبقيت لهم عقبة الهوى[1] ، كلما هزموها وقهروها ، فى منزلة من هذه المنازل ، وجدوها حية فأمعنوا فى إتعبها

(١) والهوى : ميل النفس إلى الشهوة . ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة . قال الله تعالى فى سورة ص : ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ وقال بعض العارفين :

إنى بليت بأربع يرميننى ... بالنبل من قوس لها توتير
أبليس والدنيا ونفسى والهوى ... يارب أنت على الخلاص قدير

« البصائر جـ ٥ ص ٣٥٩ » .

طمعاً لاماتة الهوى ، وفقد رؤية النفوس فى الأشياء .

فملوا الحياة ، وبرموا النفوس ، واسوا ، وتحيروا وصرخوا إلى الله من صدق القلوب باذلين له مجهودهم على ما ذكرنا من هذه المنازل منكسرين مفتقرين إليه ، قد تعروا من جميع الحول والقوة .

فنظر الله إليهم بعين الرحمة ، ولطف بهم ، وكشف عن قلوبهم الغطاء ، فتعلقت قلوبهم بالحجب الربانية فغداهم برحمته .
فهى تسبح بهم فى بحور من الثواب ، لا منتهى لهم عنده ، ولا مخرج لهم منها ، فقلوبهم كالملجم عرقاً قد حجب أبصارهم من النظر إلى أهوائهم .

فبقيت أهواؤهم معطلة عنهم ، فصفت قلوبهم لخالقهم ، قد حيل بين قلوبهم وبين أهوائهم ، فالهوى فيهم محبوس فى وثاق ، وقد وصل باب الملك قلبه ، فهو يقرع باب الملك بالتضرع والإستكانة ، فيخرج عليه من عطاياه وفوائده .

فهو الذى جاء فى الخبر « من يقرع باب الملك يوشك أن يفتح له » فهذ الآن إلى باب الملك بعد قطع هذه العقبات .

فأما من طمع أن ينال قرع الباب ، وفتحه ، ولم يحكم باب التوبة فهو فى غرور ، فهذا العبد فى تلك البحار بجوار الله ، وقربه ، وفوائده ، وعطاياه ، ولطفه ، قانعاً بما رزق من الدنيا ، راضيا بما يدبر له فى نفسه ، يجد لذة العطاء ، وليس له إلا القنوع والرضى فقط ، لأن هواه إن كان مسجوناً فهو حى بعد .

وبلغنا أن عدو الله إبليس موثوق مسجون ، فربما أطلع بقرنيه على

البحر الأخضر واستوى على سريره فى ذلك البحر .

فإذا نابته نائبة وطىء الدنيا كلها بما أطلع من قرنيه وطاف فيها كلها فى يسير من الساعات والهوى أكبر خطراً منه وأعظم سلطاناً .

وإن كان موثقا فى سجن الله فى بحر المعرفة ، فلا يؤمن اذا كان حياً أن يطلع بقرنيه فيملا القلب والنفس شراً كما ملأ الشيطان أقطار الأرضين شراً وظلمه .

فهذا يملأ السموات والأرض ، ظلمة وشرا ، على صاحبه ، فأهل هذه المنزلة على خطر عظيم من وجودهم اللذة بما نالوا من القرب من أجل حياة أهوائهم .

وأما المنزلة الخامسة وهى : قطع الهوى والتطهير منه فقال فى تنزيله : ﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات . فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى[1] ﴾ . أى من تطهر من الهوى ، فهذا مؤمن لا يخلط الفاسدات بالصالحات ، فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن فوصفه فى أول الآية بالإيمان ثم ذكر الصالحات وهو الذى لا يشوبه شيء وقال : ﴿ قد أفلح من تزكى[2] ﴾ ، أى تطهر . فالطهارة من كل شيء يباعده

---

(١) سورة طه الآيتان : ٧٥ ، ٧٦ وذكر المفسرون أن المعنى : ومن يلاقى ربه على الايمان وصالح العمل فله المنازل السامية وتلك المنازل هى صفات الإقامة فى النعيم ، تجرى بين أشجارها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء لمن طهر نفسه من الكفر بالايمان ، والطاعة بعد الكفر والمعصية « المنتخب من التفسير ص ٤٦٣ » .

(٢) سورة الأعلى الآية رقم ١٤ .

منه أو يحجبه عنه ثم قال عز وجل : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى [1] ﴾ فمعرفته باسمه دعاه إلى التصلية له وهو الوقوف بين يديه فى نوائب أموره فأفلح هذا العبد أى نجا بالتطهير من الهوى ، وخلص إلى قرب ربه ، وأما تحيره وانقطاعه فقوله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه [2] ﴾ فذكر ثلاثة أحوال ضيق الأرض عليه برحبها ، وضيق النفس ، وهو أن لا تجد قراراً ، وقطع الأسباب ، أيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه : فلما علم هذا منهم تاب عليهم ليتوبوا ، عاد عليهم بالرحمة ، والغياث ، والنظر بالجميل ، والعطف ، ليعودوا إليه بصدق التوبة ، فأخبر أنهم عادوا إليه . وقالوا ذلك بعودة من قبل عليهم ، فلما انقطعت أسبابهم من النفس والأهل ، والمال ، والأخوان ، ومن الرسول صلوات الله عليه عاد الله عليهم بالرحمة فقبلهم .

وأما من طريق الخبر ، فحدثنا أبى قال حدثنا الحكم بن المبارك قال أخبرنى بقية عن بكير حريم الأسدى قال وهب ابن أبان عن عبد الله ابن عمر : أنه خرج فى سفر فإذا بجماعة على طريق ، فقال ما هذه الجماعة ، فقالوا : أسد قد قطع الطريق ، فنزل فمشى إليه حتى هزه بيده

---

(١) سورة الأعلى الآية رقم ١٥ .

(٢)سورة التوبة الآية رقم ١١٨ .

والمعنى : « وتفضل الله سبحانه بالعفو عن الرجال الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك لا عن نفاق منهم . وكان أمرهم مرجأ إلى أن يبين الله حكمه فيهم . فلما كانت توبتهم خالصة ، وندمهم شديدا ، حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها وضاقت عليهم نفوسهم هما وحزنا ، وعلموا أن لا ملجأ من غضب الله إلا باستغفاره والرجوع إليه ، وحينئذ هداهم الله إلى التوبة ، وعفا عنهم ، ليظلوا عليها إن الله كثير القبول لتوبة التائبين ، عظيم الرحمة بعباده » المنتخب من التفسير ص ٨٢١ » .

ونحاه عن الطريق . ثم قال : ما كذب رسول الله ﷺ قال : « إنما يسلط على ابن آدم من خافه ابن آدم ، ولو أن ابن آدم لم يخف غير الله لم يسلط الله عليه[1] وإنما وكل ابن آدم بمن رجاه ابن آدم ولو أن ابن آدم لم يرج إلا الله لم يكله الله إلى غيره » .

المنزلة السادسة : منزلة الخشية :

إن لله قطعوا عباداً هذه العقبة ، صارخين إلى الله ، مستغيثين به ، فنظر الله إليهم بعين اللطف ، فكشف إليهم عن الحجب الربانية ، حتى وصلت قلوبهم إليه فعرفته .

فوقعوا فى فضاء عظيم ، وسعة بحار يسبحون فيها ، ولا يجدون لها منتهى ، متحيرين ، منقبضين ، كالمجتشمين[2] والمستوحشين .

لأنهم لما خلصوا إلى ربهم التفتوا بما فى أهوائهم فى الحياة ، فرأوا نفوسهم الدنية ، فى ذلك المحل العظيم ، فتحيروا واستحيوا من ربهم ،

---

(١) تتدرج التجربة السلوكية في مجاهداتها ورياضاتها بين حدين : الخوف ، والرجاء ــ الخوف من الله والرجاء في الله ــ وهما مطلوبان لتكاملهما ، وليس لتقابلهما لأن الخوف يقابله الأمن والرجاء يقابله اليأس فالمريد فى الأمن تستقر نفسه ، وتستكين فتفارق المجاهدة والرياضة .

والخوف ضرورى كمنبه لحال الأمن ، وباعث ومحرك للمجاهدة « انظر المعجم الصوفى ص ٦ ، ٧ » .

(٢) يقال : جشم الأمر بجشمه جشما : أى تكلفه على مشقه .

ويقال : تجشمت الأمر وتجشمته : إذا حملت نفسك عليه .

ويقال : تجشمت الأمر إذا ركبت أجسمه ، وتجشمته إذا تكلفته ، وتجشمت الأرض إذا أخذت نحوها تريدها وتجشمت الأمل : ركبت أعظمه « لسان العرب جـ ١ ص ٦٢٩ دار المعارف بمصر » .

واحتشموا[1] من الدنو ، واستوحشوا من الحال التى رأوا من إقبال الله عليهم ، وعظيم صنعه بهم ، وهربهم منه أيام الحياة .

فأقعدهم الحال عن جميع أمورهم ، وهابوه فى ذلك المقام ، هيبة أيبست طراوة نفوسهم ، فنشفت طراوتها ، وافتقدوا لذة الفؤائد ، وحلاوة العطاء ، واختبار الأحوال فى منازل القربة . فوقعوا على هذهة المنزلة ، وأهواؤهم حية قد زيدت ضيق سجن على سجن ، ووثاق على وثاق تمت بعد ، فهم على خطر عظيم من حياته فيهم .

وأما المنزلة السادسة فهم الذين وصفهم الله فى تنزيله فقال : عز وجل : ﴿ الذين هم من خشية ربهم مشفقون[2] ﴾ والخشية والغشية قريب أحدهما من الآخر ، والخاء والغين يتجاوران فى مخرجهما ومعدنهما ، والغشية شىء من الذنوب ومما يحقق لك دلك ما حدثنا به الله ابن أبى زياد قال حدثنا سنان جعفر بن سليمان قال سمعت مالك بن دينار يقول . قرأت فى التوارة يقول : الله تبارك اسمه : ﴿ يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى فى صلاتك باكياً ، فإنى أنا الله الذى اقتربت

---

(١) احتشموا فأخوذ من الحشمة والحشمة : الحياء والانقباض وقد احتشم عنه ومنه ولا يقال احتشمه .

والحشمة الانقباض عن أخيك فى المطعم وطلب الحاجة « لسان العرب لابن منظور جـ ٢ ص ٨٨٨ » .

(٢) سورة المؤمنون الآية رقم ٥٧ .

والخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ولذلك خص العلماء بها فى قوله تعالى : وإنما يخشى الله من عبادة العلماء » .

والخشية للعلماء بالله تعالى وعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية « البصائر جـ ٢ ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ » .

لقلبك ، وبالغيب رأيت نورى » فذلك بكاء الخشية . وهو من الغشية والقربة . ألا ترى إلى قوله : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى[1] ﴾ ، قال غشيها أمر من أمر الله فصارت كالمبهوت الموقر ثم حال دونها جراد من ذهب غرور قال : ورأيت السدرة عن كل ورقة منها ملك قد وقعن عليها كالغربان لحب الله ، فالخشية عند ما غشى القلب نوره وإحساسه بالقرب ، فعندها إشفاق القلب ورقته .

وقال سعيد بن جبير فيما روى عنه : أنى مقتول ، قالوا : ومن أين علمت ذلك ؟ قال كنا ثلاثة فدعونا ربنا حتى وجدنا حلاوة الدعاء فاستجيب لنا وقالت أم الدرداء لشهر بن حوشب وذكرت الخشية : فقالت : أما تجد الأقشعريرة عند الدعاء ، فذلك وجل[2] القلب ، وهو كاحتراق السعفة ، فهما حالتان الأقشعريرة والحلاوة ، وهما موجودتان فى العبد ، وإنما تكون الأقشعريرة لدنوه واقترابه من ربه مع ذكر النفس ورؤيتها ، فإذا نسى نفسه صات حلاوة ، وذهبت الأقشعريرة ، وتحقيق ذلك فى كتاب الله عز وجل من قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم[3] ﴾ فاحتراق

---

(١) سورة النجم الآيتان : ١٦ ، ١٧ . والمعنى إذ يغشى السدرة ويغطيها من فضل الله مالا يحيط به وصف وما مال بصر محمد عماراه ، وما تجاوز ما أمر برؤيته « المنتخب » ويقول القشيرى يغشاها من الملائكة ما الله أعلم به وفى خبر يغشاها فرق طير خضر ، ويقال يفشاها فراش من ذهب وما مال صلوات الله عليه وسلامه ببصره عما أبيح له من النظر إلى الأيات والاعتبار بدلائلها فماجاوز حده بل راعى شروط الأدب فى الحضرة « لطائف الاشارات جـ ٤ ص ٥٢ » .

(٢) الوجل : الخوف ، ورجفان القلب ، وانصداعه للذكر من يخاف سطرته وعقوبته أو لرؤيته وقيل : الخوف ، والخشية ، والرهبة ، والوجل ، الفاظ متقاربة المعنى « البصائر جـ ٥ ص ١٦٥ » .

(٣) سورة الزمر الآية رقم ٣٣ .

الجلود تقشعر من المثاني يثنى فيها الوعيد مرة بعد مرة ، فالأفشعريرة من الوعيد ومن الخشية منه .

قال : ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله[1] ﴾ فإذا ذكره بعد الوعيد إطمأن إليه ، ولان جلده وقلبه لأنه قد لها بذكره عن نفسه . فقال : ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾[2] أى قد اطمأنوا إلى جميع أموره وآياته لا تشتبه عليهم ، ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون[3] ﴾ أى لا يجعلون لأنفسهم شركاء فى العبودية مع خالقهم ... ﴿ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون[4] ﴾ فهؤلاء أهل صفوة الله وولايته ثم قال : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾[5] ، أى هذه الصفة لست أكلفها النفوس التى لا وسع لها بذلك . هذه صفة الأولياء الذين لا نمدهم بمال وبنين .

= ويقول العلماء أحسن الحديث : لأنه غير مخلوق وسمى القرآن حديثا لأن الرسول ﷺ كان يحدث به أصحابه وقومه . وهو كقوله « فبأى حديث بعده يؤمنون » وقوله : « أفمن هذا الحديث تعجبون » ويخطىء أهل السنة من يستند فى أن القرآن مخلوق إلى أن « الحديث » من الحدوث فالكلام محدث فقالوا : الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الله وصفاته الحسنى « هامش لطائف الاشارات جـ ٣ ص ٢٧٨ » .

وتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم إذا سمعوا آيات الوعيد ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا سمعو آيات الوعد ويقال تقشعر وتلين بالخوف والرجاء ويقال بالقبض والبسط ، ويقال بالهيبة والأنس ويقال بالتجلى والاستتار « لطائف الاشارات جـ ٣ ص ٢٧٨ » .

(١) سورة الزمر الآية رقم ٣٣ .

(٢) سورة المؤمنون الآية رقم ٥٨ تلك الآيات مختلفة ، فمنها ما يكاشفون به فى الأفطار من اختلاف الارض وما فيه الناس من فنون .

(٣) سورة المؤمنون الآية رقم ٩٩ .

(٤) سورة المؤمنون الآية رقم ٦١ .

(٥) سورة الأنعام الآية رقم ١٥٢ .

المنزلة السابعة : منزلة القربة :

إن لله عباداً قطعوا هذه العقبة صارخين ، إليه ، مستغيثين به ، من جور الهوى ، ، حياته فيهم ، فنظر إليهم ، بعين الإجلال لهم ، لما عرف منهم أنهم قد أخلصوا ، في الأنقطاع إليه ، فكشف عنهم الحجاب فتجلى لهم من عظمته ما قطع كل سبب بينه وبينهم ، فجعل شهوات نفوسهم دكّا ، وخرت أهواؤهم ميتة ، فذلك قوله : ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ﴾[1] فحل بالجبل أن ساخ وتقطع أربع قطع .

فمنه ما انفصل وطار حتى وقع في اللجة الخضراء .

ومنه ما ذهب في الدنيا فلا قرار له .

ومنه ما صار كالهباء المنثور . وكذلك تصير النفوس بأخلاقها وشهواتها ولذاتها ، وكما خر موسى صعقاً كذلك يخر الهوى صعقاً « فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك »[2] وكذلك الهوى يصير تبعاً للعقل يفيق فينطق على لسان العقل « سبحانك تبت إليك » .

فعند ذلك تولى الله سياستهم ، وجعلهم في كنفه ، وأقامهم على

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ١٤٣ .

والمعنى : ولما جاء لمناجاتنا ، وكلمه ربه تكليما ليس كتكليمنا قال رب ارني ذاتك وتجلى لي انظر إليك فأزداد شوقا . قال : لن تطيق رؤيتي . ثم أراد الله أن يقنعه بأنه لا يطيقها . فقال « ولكن انظر إلى الجبل الذي هو أقوى منك فإن ثبت مكانه عند التجلي فسوف تراني إذا تجليت لك . فلما ظهر ربه للجبل على الوجه اللائق به تعالى ، جعله مفتتا مستويا بالأرض وسقط موسى مغشيا عليه لهول ما رأى . فلما آفاق من صعقته . قال : أنزهك يارب تنزيها عظيما عن أن ترى في الدنيا . إني تبت إليك من الاقدام على السؤال بغير إذن ، وأنا أول المؤمنين في زماني بجلالك وعظمتك « المنتخب ص ٢٢٨ » .

(٢) سورة الاعراف الآية رقم ١٤٣ .

أموره ، فى أيام حياتهم ، يؤدبهم ، ويرعاهم ، لا يكل ذلك إلى أحد من خلقه .

أحيا قلوبهم مرزوقين ، شهداء فرحين بما آتاهم الله من فضله[1] .

وهؤلاء قاتلوا أهواءهم ، بما قاسوا من قطع هذا العقاب ، فصار الهوى قتيلا .

فاستوجبوا على الله أن أحيا قلوبهم ، وجعلهم شهداء عنده مرزوقين فوائده وبره ، ونوره وألطافه ، فرحين مستبشرين ، فقد يبست عروقهم ، وسكنت حركاتهم ، وانقطعت طلباتهم .

ووقفوا بين يدى مليكهم ينتظرون نوائب أموره ، يمرون فيها فى أسرع من السهم فى بشر وطلاقة من أهوائهم ونفوسهم التى ماتت ، ثم حييت بالله .

فهم أحرار كرام محررو الرحمن ، حررهم من عبودية الهوى ، وفك أسرهم .

يباهى بتلك القلوب ملائكته ، طوبى لأرض تقلهم ، ولسماء تظلهم ، أولياء[2] الرحمن ، أوتاد الأرض ، المحفوفون بستر الله ، المغذون برحمة الله ، المحفوظون فى حصن الله ، المرعيون فى كنف الله المربون بلطف الله ، الأخصون بسرائر الله ، المقربون غداً فى دار

---

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى فى سورة الأنعام : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله » .

(٢) يقول الحكيم الترمذى : الولاية على وجهين : ولى خرجت ولايته من الجود والمنة .. وولى خرجت ولايته من الجهد والسعى والاكتساب « معرفة الاسرار ص ٤٩ » .

زيارة الله ، المكرمون غدوة وعشية بالنظر إلى الله ، قد ألهاهم عن نعيم الجنان التلذذ بقرب الله ، فهم الخاشعون ، وذلك لأنهم وصلوا إليه ، فماتت حركة كل عرق بما فيه من الهوى وخشعت الجوارح .

فلما دام من حالهم ذلك ، وصنع الله لهم على ما وصفنا كان ذلك الصنع منه منة لهم ، وصلهم فاتصلوا ، فذهبت الحياة ، وافتقدوا رؤية النفس، وخاضعوا إليه في بحار المعرفة ، مستأنسين به ، مترددين في تدبيره ، في الفناء الأكبر(1) ، حتى تعززوا به ، وتكبروا وتجبروا وتكبروا في كبريائه ، وسكرو به عن عطائه .

فتعززوا عن الأشياء في فردانيته ، فصاروا عيون الله في أرضه ، وأهل كبرياء الله ، لا تقوم لهم الجبال ، ولا البحار ، ولا ملوك الأرض ، قد ألبسهم من هيبته ، وكساهم من حلة رضوانه ، وكللهم بحكته ،، وتوجهم بقربته ، يهابهم من نظر إليهم قهراً ، ويحبهم من رآهم أسرا ويخضع لهم من لقيهم قسراً .

الله ساكن قلوبهم ، والحق ساكن صدورهم ، هذا منتهى ما وجدناه من منازل العباد واطلعنا عليه ، فإن رضيت بتحقيق ذلك من

(١) الفناء تبديل الصفات البشرية بالصفات الالهية دون الذات فكلما ارتفعت صفة قامت صفة إلهيئة مقامها فيكون الحق سمعه وبصره كما نطق به الحديث .

وقيل الفناء : سقوط الأوصاف المذمومة .

وقيل : هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا .

وقيل الفناء عن الخلق هو الانقطاع عنهم وعن التردد إليهم ، واليأس مما لديهم . « انظر معجم مصطلحات الصوفيه للدكتور عبد المنعم الحفنى ص ٢٠٧ » .

الكتاب والخبر أوجدنا ذلك باباً باباً إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأما المنزلة السابعة فهم قوم لما أوثقوا الهوى ، وهم منه على وجل[1] ، نظر الله إليهم ، وقد استفرغوا مجهودهم فى ذاته .

فأجلهم وصح لهم تفويضهم إليه ، فكفاهم مؤونة الهوى ، وبلغوا غايتهم من التطهر من الهوى فتجلى لهم من عظمته ما صعق الهوى ، واندكت الشهوات ، فصارت كالهباء المبثوث تفرقا وتلاشياً . وذلك قوله عز وجل : ﴿ وأفوض أمرى إلى الله ﴾[2] قال الله : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾[3] .

وكذلك حين فوض العبد أمره إلى الله ، وانقطع عما دونه ، والتجأ إليه وقاه الله سيئات ما مكر الهوى ، وحاق بشهواته سوء العذاب .

أى وقع عليه التجلى حتى تلاشى وصعق الهوى ، ثم خر تائبا منزها لربه ، وقال : أنا أول المؤمنين . إطمئان أن لا يراه أحد فى الدنيا وأشبه بما رآه من شأن الجبل .

فكذلك النفس تطمئن إلى ربها ، وما بعد عن الطور من الأرض أصابتها بركة التجلى .

فلم يبق يؤمئذ فى الأرض عاقر إلا حملت ، ولا كنز إلا لفظته

(١) الوجل : الخوف من « جفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سطوته وعقوبته أو لرؤيته « البصائر جـ ٥ ص ١٦٥ » .
(٢) سورة غافر الآية رقم ٤٤ .
(٣) سورة غافر الآية رقم ٤٥ .

الأرضون ، ولا معادن إلا ضحكت عما فيها ، ولا ماء أجاج ألا طاب ، ولا ملح إلا عذب ، ولا سقيم إلا برىء ، ولا ذو زمانة إلا صح ومن وقع عليه التجلى طار وتفرق وتلاشى ، وكذلك شأن الهوى والشهوات فى التجلى ولم يبق على القلب سقم الا ذهب ، ولا زمانة وعجز الا زال .

فظهرت الكنوز التى فيها ، وعذب ما فيها من الأجاج ، والملح ، وهو حب الدنيا ، وحب النفس ، وحمل ما كان منه عاقراً من فؤائد الله وسرائره وما يكشف له عن مكنون الغيب من إقباله ورأفته ورحمته بعبيده .

فقد كان يحب الدنيا لنفسه ، ويحب نفسه لنفسه ، فكان هذا أجاجاً منتناً ومرًا ملحاً .

فالآن عذب هذا فصار يحب الدنيا من أجل أنها خلق الله ورحمة منه على عبيده وبرمنه لهم ، ولطف ، وصار يحب النفس من أجل أنه عبد الله خلقه وصوره واجتباه فيما يريه من الدلائل وأنه استخصه لنفسه .

فكما يحب المؤمنين من عبيد الله من أجله كذلك يحب نفسه من أجله ، وقد صفت محبته وزالت خيانة نفسه .

فهو أمين على دنياه وأمين على نفسه ، وذهب سقم القلب وهو الشك . وذهبت الزمانة والعجز وهو الشرك والغفلة .

وأما من طريق الخبر فى شأن التجلى فحدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد القفى عن أيوب عن أبى قلابة عن النعمان بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله أوانى فى أرضه ، وهى قلوب عباده فأحب القلوب إليه مارق منها وصفا وصلب » فالرقة أن ترق

للإخوان والصفاء من الأخلاق الكدرة والصلابة فى ذات الله .

حدثنا بذلك صالح بن محمد قال حدثنا سليمان بن عمرو عن أبى حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال : « ألا إن لله فى الأرض آنية ألا وهى القلوب ، فأحبها إلى الله أرقها وأصفاها وأصلبها » فأرقها للاخوان وأصفاها أصفاها من الذنوب ، وأصلبها أصلبها فى الدين . فهؤلاء أهل الصلابة فى ذات الله .

وهو قول على بن أبى طالب رضى الله عنه « ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فقد أرغم أنف المنافقين ، ومن صدق فى المواطن غضب الله له » .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما رزق عبد شيئا أفضل من إيمان صلب » فقد ولى الله سياستهم ، وأقامهم على مقامهم أحراراً كراماً تكرموا ، فكرموا على ربهم .

وذلك قوله عز وجل : ﴿ سبحانه[1] ﴾ ينزه نفسه ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ بل عباد مكرمون ، لا يسبقون بالقول[2] ﴾ واقفين

---

(١) ورد قول الله « سبحانه » فى قوله تعالى .
« وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه » سورة البقرة الآية رقم ١١٦ .
وقوله تعالى « سبحانه أن يكون له ولد » النساء الآية رقم ١٧١ .
وقوله تعالى « سبحانه وتعالى عما يصفون » الأنعام الآية ١٠٠ .
وقوله تعالى « لا اله إلا هو سبحانه عما يشركون » التوبة الآية ٣١ .
واية ١٨ / ٦٨ من سورة يونس ، واية رقم ١ ، ٥٧ من سورة النحل ، واية رقم ٤٣ من سورة الاسراء و٣٥ من سورة مريم ، ٦٦ من الأنبياء ، و٤٠ من الروم واية رقم ٤/ ٦٧ من الزمر .

(٢) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٦ ، ٢٧ .

بباب مليكهم ، لا يبدءونه بالقول ، ينتظرون أموره ، ويراقبون أموره ، ويراقبون أحوال الأمور ﴿ يعلم ما بين أيديهم[1] ﴾ يعلم ما يدبر لهم فى ديناهم وما هيألهم فى آخرتهم قد كفاهم علمه من كل سىء ، وغلبت على قلوبهم حلاوة مشيئاته لحبهم إياه ، وتعظيمهم جلاله وعظمته ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون[2] ﴾ ولايعلمون إلا بأمره على تلك النوائب ، فهم المهديون أهل جبايته ، وقد ذكر الصنفين فى التنزيل فقال : ﴿ الله يجتبى إليه من يشاء[3] ﴾ ثم قال : تبارك اسمه ﴿ ويهدى إليه من ينيب[4] ﴾ فالجباية بمشيئته والهداية لأهل الإنابة ، هذا بسبب ، وذاك بلا سبب . فهم أهل جبايته وفى كنفه ، وفى قبضته فهم أهل حميته وولايته .

لا يشفعون إلا لمن ارتضى ولا يرحمون إلا من رحم ، ولا يسالمون إلا من سالم ، ولا يوالون إلا من والى ، ولا يعادون إلا من عادى ، ولا يقبلون إلا على من أقبل هم قبضته ، وهو يستعملهم .

وتحقيق ذلك من طريق الخير ما حدثنا به إبراهيم بن المستمر الهذلى البصرى قال حدثنا أبو عامر العقدى قال حدثنا عبد الواحد ابن ميمون أبو حمزة مولى عروة بن الزبير عن عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله تبارك اسمه ، وحدثنا اسماعيل بن نصر قال حدثنا أبو المنذر القطيعى قال حدثنا عبد الواحد عن عروة عن عائشة رضى

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٨ .

(٢) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٧ .

(٣) سورة الشورى الآية رقم ١٣ واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهى يتحصل له منه أنواع من النعيم بلا سعى . « البصائر جـ ٢ ص ٣٦٧ » .

(٤) سورة الشورى الآية رقم ١٣ .

الله عنها عن رسول الله ﷺ عن الله تبارك اسمه وحدثنا داود بن حماد قال حدثنا عمر بن سعيد الدمشقى قال حدثنا صدقة بن عبد الله قال حدثنى عبد الكريم الجزرى عن أنس بن مالك عن رسول ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك اسمه وعز جلاله قال عز وجل : « من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء فرائضى ، وإن عبدى ليتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فأذا أحببته كنت عينه التى بها يبصر وأذنه التى بها يسمع ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وفؤاد الذى يعقل به ، ولسانه الذى يتكلم به ، إن دعانى أجبته ، وإن سألنى أعطيته ، وما ترددت عن شىء أنا فاعلة ترددى عن موته ، وذاك أنه يكره الموت وأنا أكره مساءته »[1] .

ومما يؤكده أن هذا الصنف فى هذه الأمة كثير بحمد الله ونعمته ، قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه للرجل الذى شجه على رضى الله عنه : « أصابتك عين من عيون الله » ، حدثنا بذلك أبو بكر بن سابق الأموى عن عمر بن عبيد عن الأعمش قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :إن علياً رضى الله عنه شجنى[2] فقال : لعلى

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الرقاق باب التواضع جـ ١١ ص ٣٤٠ عن أبى هريرة . وأشار ابن حجر فى « فتح البارى » جـ ١١ ص ٣٤١ بتخريجه عن عائشة فى كتاب الزهد للأمام أحمد .

وأشار المنارى إلى تخريجه عند أحمد والحكيم وأبو يعلى والطبرانى وأبى نعيم وابن عساكر وابن حبان .

(٢) الشجة : الجرح يكون فى الوجة والرأس فلا يكون فى غيرها من الجسم .

والشج : أن يعلو رأس الشىء بالضرب كما يشج رأس الرجل ولا يكون الشج إلا فى الرأس .

رضى الله عنه : لم شججته ؟ قال : إنى مررت به وهو يقاوم امرأة فساءنى فأصغيت إليه سمعى فكرهت ما سمعت فشججته فقال عمر رضى الله عنه . إن لله عيونا فى الأرض وأن عليا من عيون الله .

وفى باب الإستعمال عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة لم تدخلها فيه ، إذ كان أمر الرسول ﷺ أعظم من أن يقاس منه منها قوله : ﷺ : « أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها »[1] ولم أقله ولكن الله قاله وقال : إن الله قال على لسان نبيه : سمع الله لمن حمده .

وقال فى حديث : « لم أناجه ولكن ربى ناجاه » يعنى علياً رضى الله عنه .

عدنا إلى ذكر المنازل « يهابهم من نظرا إليهم قهراً ، ويحبهم من رآهم أسرواً ويخضع من لقيهم قسراً ، الله ساكن فى قلوبهم ، والحق ساكن صدورهم » ومما يحقق ذلك ما رواه سهل بن سليم رحمه الله عن سويد بن سعيد الأنبارى قال : حدثنى حفص بن ميسرة عن إبراهيم ابن محمد بن فراس عن وهب بن منبه قال : يقول الرب تبارك وتعالى : ﴿ تبنون لى البيوت ، وأى بيت يسعنى ؟ السموات حشو كرسى ،

والشج فى الرأس خاصة فى الأصل وهو أن تضربه بشىء فتجرحه فيه وتشقه ثم استعمل فى غيرة من الاعضاء « لسان العرب جـ ٤ ص ١٩٧ » .

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل الانصار جـ ٥ حديث ص ١٧٤ ، ١٨٣ ، ص ٣٨٠ وأخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الاستقاء وأخرجه الترمذى فى سننه ، والدارمى وأحمد بن حنبل .

قال النووى فى شرح صحيح مسلم : هذا من أحسن الكلام مأخوذ من سالمته إذا لم تر منه مكروها ، فكانه دعا لهم بأن يصنع بهم ما يوافقهم ، فيكون سالمها بمعنى سلمها « شرح النووى على صحيح مسلم جـ ٥ ص ٣٨١ » .

والأرض موضع قدمى ، كل ذلك خلقى ولى ، وإنما يسعنى قلب الوارع التقى من خلقى ﴾ ، وحدثنا عبد الله بن أبى زياد قال حدثنا سيار عن جعفر بن سليمان ، عن عمران القصير قال : قال عيس عليه السلام : أين أبغيك يارب ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم ، فإنى أدنو منهم كل يوم باعاً ، ولو لا ذلك لا نهدم ما بنوه » ، وقوله فى حديث جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى : ﴿ كنت فؤاده الذى به يعقل ﴾ ما يحقق هذه الأخبار كلها ، لأن نور عقله قد خمد لنور الله الذى قد أشرق على قلبه فليس للعقل هاهنا معتمد .

قال أبو عبد الله رحمه الله[1] وجدت قلوب الخلق فى سجوان النفوس فمنهم من بقى قلبه فى سجن نفسه إلى أن مات . فأجاب ربه من سجن العقوبة ، لأنه لما أهمل قلبه ولم يصن الإيمان الذى حى به وأكرم خذل .

فاستولت النفس على القلب فعوقب به ، فصار القلب أسيراً مسجوناً حبيس الشهوات ، ومنهم من احتال حتى أخرجه من الدنيا فوقع قلبه فى الآخرة فصار حبيس المنى ، فهذا كمسجون أخرج من بيوت اللصوص . ومن المطبق إلى موضع الزوار .

فإذا خرج من الآخرة فوقع فى الملكوت إلى الله ، فقد خرج من المزار ومن جميع السجون ، وصار مخلى عنه يذهب هكذا وهكذا . فما زال هذا يجول فى حيازة الملك حتى وقف ببابه .

فما زال هناك مقيما حتى عرف فما زال بعد المعرفة يديم

---

(١) تعبير من الناسخ وجدناه بالمخطوطه .

الإختلاف حتى قلد عملا ، فوجد أميناً فزيد فى الأمانة .

فوجد قويا فى حفظها حتى عرف بالنصحية فجعلت له مرتبة وصار له عند الملك وجها واتخذ جاهاً .

فما زالت به الأمور حتى ترفعه إلى معالى الدرجات عند الملك يؤمن فيوجد أميناً ، ويقلد أمراً فيوجد ناصحاً .

حتى استولى على جميع الأمور ببابه ، وكان عنده وجيهاً ، فشفعت بالملك فلم يكن له من جميع ما حوت خزائنه نهمة ، ولا قصد ، ولا تلذذ ، إلا بالوقوف بين يدية ، وموافقة محابه من الأمور .

فاتسعت عليه الأمور والأشياء ، واطلع مطلعاً عجيباً ، فهذا حبيس الله ، والمخلط حبيس الشهوات ، والكافر حبيس الشيطان .

ومما يحقق ذلك قول رسول الله ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن[1] » فالمؤمن بحقيقة إيمانه صار بتلك الصفة ، فصارت الدنيا له سجناً فهو حبيس الله ، برم بالحياة حتى تنقضى .

فإذا نفذت المدة أخرجه من سجنه إلى بساتينه ، ومن ضيق محبسه إلى سعة جنابه ومن غمرته إلى أفراحه وسروره ، ومن هول مخاوفه إلى دار أمنه وجواره ، ومن بكائه إلى ضحكه فى دار قدسه .

تم بحمد الله وعونه ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وسلم تسليماً كثيرا .

---

(١) سبق تخريج الحديث .

المصادر والمراجع

ـ الجيلى : العارف بالله عبد الكريم بن ابراهيم الجيلى
ـ مراتب الوجود ـ ط مكتبة الجندى بمصر .
ـ الحسينى : عبد المجيد هاشم وكيل شيخ الأزهر
ـ أصول الحديث النبوى ـ ط دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢ .
ـ الحسينى : الدكتور عبد المحسن
ـ مقدمة كتاب « حقيقة الأدمية » للحكيم الترمذى نشر مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية الجزء الثالث ١٩٤٦ م .
ـ المعرفة عند الحكيم الترمذى ـ ط القاهرة ١٩٦٨ .
ـ الحكيم الترمذى: أبو عبد الله بن على المتوفى سنة ٣٢٠ هـ
ـ أبواب فى صفة العلم ـ مخطوط بمعهد المخطوطات رقم ١٠٤ .
ـ اثبات العلل ـ مخطوط ولى الدين رقم ٧٧٠ .
ـ الاحتياطات ـ مخطوط باريس رقم ٥٠١٨ .
ـ اداب المريدين وبيان الكسب ـ تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة ـ ط السعادة بمصر .
ـ الحكيم الترمذى: أبو عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٣٢٠ هـ
ـ أسرار مجاهدة النفس ـ تحقيق إبراهيم الجمل
ـ الأكياس والمغترين ـ مخطوط معهد المخطوطات العربية رقم ١٠٤ .

ـــ الأمثال من القرآن والسنة ـــ تحقيق على محمد البجاوى ـــ ط دار نهضة مصر .

ـــ بدو شأن أبى عبد الله ـــ مطبوع ضمن ختم الأولياء .

ـــ بيان العلم ـــ مخطوط .

ـــ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب تحقيق الدكتور نقولاهير ـــ ط عيسى البابى الحلبى ١٩٥٨ مصر .

ـــ تحصيل نظائر القرآن ـــ تحقيق الاستاذ حسنى نصر زيدان ـــ ط الساعدة ١٣٩٠ هـ .

ـــ جواب كتاب من الرى ـــ تحقيق الدكتور الجيوشى ط منبر الاسلام ع ٨ السنة ٤٠ .

ـــ الحج وأسراره ـــ تحقيق الاستاذ حسنى زيدان ط دار السعادة بمصر .

ـــ حقيقة الأدمية ـــ ط مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية مجلد سنة ١٩٤٦ م .

ـــ ختم الأولياء ـــ تحقيق الدكتور عثمان اسماعيل يحى ط المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

ـــ خمس رسائل للحكيم الترمذى ـــ تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة ـــ ط مجلة اصول الدين بالقاهرة المجلد الأول .

ـــ درجات الذكر ومراتب الذاكرين ـــ مخطوط بمكتبة الدكتور الجيوشى .

ــ الرياضة وأدب النفس ــ تحقيق الدكتور على حسن والمستشرق أبرى ــ ط الحلبى ١٣٦٠ هـ
ــ الرد على الرافضة ــ مخطوط
ــ الرد على المعطلة ــ مخطوط بمكتبة الاسكندرية رقم ١٤٥ .
ــ شفاء العلل ــ مخطوط رقم ٧٧٠ ولى الدين .
ــ الصلاة ومقاصدها ــ تحقيق الاستاذ حسنى زيدان ــ ط القاهرة ١٩٦٥ .
ــ العقل والهوى ــ مخطوط بمكتبة الجيوشى
ــ علم الأولياء ــ تحقيق الدكتور سامى نصر لطف ط مكتبة الحرية ١٩٨٣ م .
ــ العلل ــ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٢٥ .
ــ علل العبادات مخطوط رقم ٧٧٠ .
ــ غرس العارفين ــ مخطوط معهد المخطوطات العربية .
ــ غور الأمور ــ مخطوط المكتبة الأهلية بباريس ٥٠١٨ .
ــ الفروق ومنع الترادف ــ مخطوط باريس رقم ٥٠١٨
ــ فى خلق هذا الأدمى ــ مخطوط بمعهد المخطوطات رقم ١٥٤ .
ــ الكلام على معنى لا إله إلا الله ــ تحقيق

الدكتور الجيوشى ـــ ط حسان بالقاهرة .
ـــ كيفية السلوك إلى رب العالمين ـــ مخطوط رقم ٢٥٣ بخزانة تطوان المغرب .
ـــ مسألة الايمان والاسلام والاحسان ـــ تحقيق الدكتور الجيوشى ـــ ط منبر الاسلام عدد ٦ السنة ٣٨ .
ـــ المسائل المكنونة ـــ تحقيق الدكتور الجيوشى ط دار التراث العربى بمصر ١٤٠٠ هـ .
ـــ معرفة الاسرار ـــ تحقيق الدكتور الجيوشى ط دار النهضة العربية بمصر ١٩٧٧ م .
ـــ مكر النفس ـــ
تحقيق الدكتور بركة ضمن كتاب فى التصوف والاخلاق دراسات ونصوص .
ـــ وتحقيق الدكتور الجيوشى ضمن كتاب المسائل المكنوبة .
ـــ منازل القرية ـــ مخطوط دار الكتب رقم ٧٧٠ .
ـــ منازل العباد من العبادة ـــ تحقيق الدكتور الجيوشى ـــ ط دار النهضة العربية بمصر ١٩٧٧ .
ـــ المنهيات
تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول ـــ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٤ هـ
ـــ المنهيات

تحقيق محمد عثمان الحشت ـ ط مكتبة القرآن بمصر ١٩٨٦ م .
ـ نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول
تحقيق الدكتور أحمد السايح والدكتور السيد الجميلى .
ـ الحكيم : الدكتورة سعاد الحكيم
ـ المعجم الصوفى ـ ط المؤسسة الجامعية بيروت ١٠٤١ هـ .
ـ حلمى : الدكتور محمد مصطفى حلمى
ـ الحياة الروحية فى الاسلام ـ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ .
ـ الحميدى : الحافظ أبو بكر عبد الله الحميدى
ـ المسند ـ الطبعة الأولى نشر المجلى الاعلى بالهند .
ـ الخراز : الطريق إلى الله أو كتاب الصدق ـ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ط دار الكتب الحديثة ١٩٧٥ م
ـ الخطيب البغدادى : الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت ٤٦٣ هـ
ـ الكفاية فى علم الرواية ـ ط دار الكتب الحديثة
ـ تاريخ بغداد ـ ط الخانجى ١٣٤٩ هـ .
ـ الخطيب : الاستاذ عبد الكريم الخطيب
ـ نشأة التصوف ـ ط مؤسسة الشرق للطباعة ١٣٨٠ هـ .

ــ ط دار المعرف ١٩٧٧ .
ــ النووى : محى الدين النووى الشافعى
ــ الافكار
ــ ط الحلبى ١٣٤٨ هـ .
ــ رياض الصالحين
ــ ط القاهرة .
ــ الهجويرى : على بن عثمان الجلابى الغرتوى توفى سنة ٤٦٩ هـ
ــ كشف المحجوب
ــ تحقيق الدكتورة اسعاد قنديل
ــ ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .
ــ الهروى : أبو اسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى
ــ منازل السائرين إلى الحق عز شأنه
ــ ط الحلبى بالقاهرة ١٣٨١ هـ .
ــ هلال : الاستاذ محمد أمين هلال
ــ منهج التصوف الاسلامى فى تربية النفس
ــ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٢ هـ .
ــ الهندى : العلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى البرهان فورى ٩٧٥ هـ
ــ كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ط مؤسسة الرسالة ١٣٩٩ هـ .
ــ الهيثمى : الحافظ نور الدين على بن أبى بكر ٨٠٧ هـ

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد
- ط دار الكتاب العربى
- مورد الظمآن إلى زوائد من حبان
- ط السلفية .

- **اليافعى** : أبو عبد الله اليافعى
- نشر المحاسن الغالية
- ط الحلبى .

* * *

الفهـــرس

* * *

ايدع رقم ٨٨/٨٧٣٢

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة ـ الفجالة
جمهورية مصر العربية تلفون ٩٠٤٣٤٣ ـ ٩٠٥٢٩٦